مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد العاشر - السنة الخامسة. رجب ١٤٤٢هـ / فبراير ٢٠٢١م

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]

موضوعات العدد:

- تدبر القرآن الكريم وآثاره
  محمد الأمين أمير — د. جمال أحمد بشير بادي
- مظاهر نعمة الطريق في ضوء سورة النحل
  د. محمود بن عبد الجليل روزن
- الجوانب البلاغية في سورة الفاتحة «دراسة تحليلية»
  د. محمد وسيم خان
- آيات الأخذ بالبأساء والضراء في سورة الأنعام (٤٢-٤٥) «تفسير واهتداء»
  د. مسعد بن مساعد الحسيني
- الإشارات لما في مقدمة الشاطبية من الآداب والتوجيهات
  د. طارق بن سعيد أبو ربعه السهلي الحربي
- تقرير رسالة علمية بعنوان:
  تدبر القرآن الكريم عند الإمام ابن القيم رحمه الله «دراسة تأصيلية»
  للباحث: عبد العزيز بن حسين الوثلان
- تقرير عن مجلة تدبر خمس سنوات (١٤٣٨-١٤٤٢) / (٢٠١٦-٢٠٢١)
- تقرير عن ملتقى التفسير الأول بدولة الكويت «مشاني»
  التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

مجلة تدبر

الإشارات لما في مقدمة الشاطبية من الآداب والتوجيهات

د. طارق بن سعيد أبو ربعه السهلي الحربي

الأستاذ المساعد بقسم القراءات بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية

قدم للنشر في: ١٤٤١/٨/١٩
قبل للنشر في: ١٤٤١/١٠/٢١
نشر في: ١٤٤٢/٧/١

- حصل على درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية، كلية: القرآن الكريم، بأطروحته: العقد الفريد والدر النضيد في رواية قالون بالتجويد، لجمال الدين محمد بن أحمد المِلحاني (ت بعد ٩١٩ هـ)، من أول الكتاب إلى نهاية باب اللامات، دراسة وتحقيق.
- حصل على درجة الدكتوراه من الجامعة الإسلامية، كلية: القرآن الكريم، بأطروحته: الجوهر النضيد في شرح القصيد، لأبي بكر ابن أيدُغْدِي، الشهير بابن الجندي (ت٧٦٩ هـ)، من أول فرش سورة (ن) إلى آخر الكتاب، دراسة وتحقيق.

- **بعض النتاج العلمي:**

١- تعامل ابن الجوزي مع القراءات في تفسيره زاد المسير (دراسة وصفيَّة تحليليَّة).

٢- قصيدة مفيدة في مخارج الحروف، للإمام: أبي محمد عبد الله بن علي البغدادي، المعروف بـ: سِبْط الخياط (ت ٥٤١ هـ) رحمه الله (دراسةً وتحقيقًا وشرحًا).

- البريد الشبكي: Talsehli@hotmail.com

مجلة تدبر

ملخص البحث

يتحدث البحث عن «منظومة الشاطبية»، وما اشتملت عليها من آدابٍ ونصائحَ وتوجيهات؛ وذلك فيما يتعلق بدينه، وسلوكه مع نفسه، أو معاملته مع الآخرين، وما ينبغي عليه اجتنابه.

وجاء منتظمًا الوصاية بالقرآن الكريم، وبيان أنه حبل الله الممدود، وأنه لا يبلىٰ، وكونه شفيعًا لأصحابه، وفيه الغُنية، وضرورة التمسك به، والإخلاص فيه.

والحث علىٰ رفيع الأخلاق كذلك من: التواضع، والصدق، وسلامة الصدر، والصبر، والحرص علىٰ نفع الناس، والوئام، والنصح للمسلمين.

والتحذير من سيِّئها؛ كالغِيبة، وغيرها من الذنوب والمعاصي.

الكلمات المفتاحية: الإمام – الشاطبي – القرآن – أدب.

References to the Proprieties and Guidelines Contained in Muqaddimah Ash-Shaatibiyyah

Prepared by:
Dr. Taariq bin Sa'eed Abu Rub'ah As-Sihli AL-Harbi[1]
Assistant Professor at the Department of Qira'aat, Faculty of the Glorious Qur'an and Islamic Studies, the Islamic University of Medina
E-mail: Talsehli@hotmail.com

Abstract

The research discusses the Shaatibiyyah Poem as well as the proprieties, pieces of advice and guidelines contained therein regarding religious matters, how to deal with one's self and others and the things that are to be avoided.

In a poetic language, Imam Ash-Ashatibi recommends adhering to the Noble Quran, stating that it is the firm rope of Allah, that it can never be outdated, that it will be an intercessor for its adherents, that it is an indispensable value and that it should be duly and devotedly held fast to. He also promotes other good manners like modesty, truthfulness, good-heartedness, patience, helpfulness, peacefulness and loyalty to the Muslim community. At the same time he warns against bad manners such as backbiting and other sins and acts of disobedience.

Keywords: Imam, Ash-Shatibi, Quran, Proprieties

(1) He obtained a Master›s Degree from the College of Arabic Language at the Islamic University in Madinah, with his thesis entitled: The Talents of the Literature in Explaining Mughni Al-Labeeb of Al-Azniki (Died: 1018 AH) – (Study and Investigation). He obtained a PhD degree from the College of Arabic Language at the Islamic University in Madinah, with his thesis entitled: "The Maghazi (Military Expeditions) Book in Sahih Al-Bukhari (An Analytical Rhetorical Study

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، أفاض الخير علىٰ خلقه أجمعين، ووالىٰ عليهم نعمَه كلَّ وقت وحين، والصلاةُ والسلام علىٰ سيد الأولين والآخرين، من بُعث رحمةً للعالمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن مِن أعظم المنن، وأجزل العطايا: أن يصطفيك الله للعلم النافع، فيخصَّك بذلك من بين كثير ممن خلق، ويفضلك تفضيلًا، ولا تثبت هذه الفضائل بمجرد الحفظ والتلقين إذا كان عاريًا عن خشية الله والعمل بمقتضاه، ومن المعلوم: أن العلم خير، ومِن الخير ما هو فتنة، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فكم من الأقدام زلَّت لمَّا ترادفَت عليها النِّعم! وكم مِن القلوب أعرضَت وتولَّت لمَّا توغلَت في العافية! فعلىٰ هذا: يجب علىٰ من أراد النجاةَ أن يُعنىٰ بهذا الأمر أيَّما عناية؛ فلربما يأتيك العطَبُ من طريق تُفجَأ به ولا تتوقعه، والله وحده المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

واعلم: أن لكل نعمة حقًّا، وفي كل جارحة عبودية، فمن قام بها= زِيد له في الخير، ومن تنكَّب سبيلَ ذلك وأعرض عنه= سُلبت منه العطايا، وكان كما قال الله: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة]، فالله سبحانه سمىٰ كفرَ النعمة هنا تبديلًا لها؛ لأن من لم يقم بواجبها= اضمحلَّت عنه وذهبت، وتبدَّلَت بالكفر والمعاصي[1]، وقد حذَّرنا الله تعالىٰ من الانغماس في الدنيا واتباع الشهوات -خاصةً في حقِّ مَن اصطفاه الله بالعلم-، وبيَّن أن هذا الضَّرْب من الناس

(١) انظر: تفسير السعدي (٩٤).

قد طُمِسَت بصيرتُه؛ فهو في حجاب عن الفَهم والحكمة، والانتفاع والرفعة، وضرب له مثلًا بأخسِّ الحيوانات، فقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف]، فهذه الآية هي أشد آية علىٰ العلماء -كما قال عطاء-(١).

العِلمُ حُلَّة لا تضاهيها حُلَّة، لا يَمنحه الله إلا لمن يحبه ويرضىٰ عنه، أهلُه أحياء وهم مقبورون، كما أن أهل الجهالة أموات وهم موجودون:

وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ ... وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَلَوْ فُقِدتَّا(٢)

ومن حازه ما فقدَ شيئًا، ومَن فقده= فقدَ الخير:

يَا أَيُّهَا الْعَالِمُ الْمَرْضِيُّ سِيرَتُهُ ... أَبْشِرْ فَأَنْتَ بِغَيْرِ الْمَاءِ رَيَّانُ

وَيَا أَخَا الْجَهْلِ لَوْ أَصْبَحْتَ فِي لُجَجٍ ... فَأَنْتَ مَا بَيْنَهَا لا شَكَّ ظَمْآنُ(٣)

وهذه مِن بركات العِلم: سيرةٌ عطِرة مدىٰ الأزمان، ودعوات تصعد، وحسنات تتوالىٰ، وشرف في الدنيا، ورفعة في الآخرة، كما أشار الله إلىٰ ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٦](٤).

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٢/ ١٧٣).

(٢) البيت لأبي إسحاق الإلبيري. انظر: ديوانه (٢٧).

(٣) البيتان لأبي الفتح البستي. انظر: عنوان الحِكَم (٤٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٥٣٨).

ومِن جملة مَن كتب الله لهم القبول، وأحيا ذكرَهم وهم تحت الأرض: الإمام أبو القاسم الشاطبي ﷺ، وخيرُ شاهد علىٰ ذلك: قصيدته التي لم تمُت بموته -كما هو شأن الإخلاص؛ يُبقي ولا يُفني-، قصيدةٌ مَن طالعها أيقن أنها كرامة مِن الله أكرمه بها، اشتملت -وبخاصة مقدمتها- علىٰ جملة من الوصايا والآداب والتوجيهات، وهذا هو شأن الربَّانيِّين؛ يحرصون علىٰ النفع؛ لأنهم ورثة الأنبياء ﷺ، فحَريٌّ بكل ناصح لنفسه أن يُعنىٰ بها، ويغرزها بالخناجر علىٰ الحناجر، فهو يتكلم بنور الله؛ لأنه من أهل القرآن، وقد قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

والإمام الشاطبي ﷺ؛ شُهرتُه تُغني عن التعريف به[(١)]؛ فهو إمام فذٌّ، وجبل أشمُّ، وعالِم نِحرير، وجِهبذ محقِّق، بذل وقتَه في خدمة كتاب الله ﷻ، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من قصيدته «الشاطبية» التي مَن نظر فيها= علم مقدار ما آتاه الله مِن العِلم!.

◆ أهمية الموضوع، وأسباب اختياره:

١. احتواء المقدمة علىٰ جملة من الآداب والوصايا القيمة النافعة، والتي ينبغي أن تكون موضعَ اهتمام وعناية.

٢. كونها لإمام جليل، نحسبه صادقًا في بذلها؛ وذلك أدعىٰ لقبولها.

٣. أنها في منظومة مشهورة، لا يستغني عنها طلاب هذا الفن؛ فحريٌّ بهم أن يقفوا علىٰ كل ما فيها -من قضايا علمية، وتوجيهية-.

---

(١) ولم أترجم له؛ خشية الإطالة، ولأنه -كما ذكرتُ- لا تخفىٰ ترجمته علىٰ أرباب هذا الفن، وهي مستفيضة مشهورة. وانظر في هذا: الإمام أبو القاسم الشاطبي؛ دراسة عن قصيدته: حرز الأماني في القراءات، للدكتور: عبد الهادي عبد الله حميتو.

◆ الدراسات السابقة:

وقفتُ على بحثَين:

الأول: «قِيَم أدبية في نظم الشاطبية»، للأستاذ الدكتور: محمد محمد خميس.

والثاني: «الدروس المنهجية من منظومة الشاطبية»، للأستاذ الدكتور: عبد الرحيم بن عبد الله الشنقيطي.

وقد بذلَا جهدًا بديعًا لا يُنكره إلا مكابر، فجزاهما الله خيرًا، ومتَّع بهما.

ولكن من خلال الاطلاع عليهما يظهر الفرق بين هذا البحث وبينهما من خلال ما يلي:

أولًا: من حيث العموم:

عدم اقتصارهما على مقدمة «الشاطبية» فقط[(١)]، بخلاف هذا البحث.

ثانيًا: على وجه الخصوص:

فالأول: يدور بحثُ فضيلته حولَ براعة الإمام الشاطبي ﷺ في استعمال الألفاظ بما يتناسب مع المعنى المراد، وكذلك في توظيف رموز القرَّاء لغرضَيْ: الدلالة على المقصود -الذي هو الأصل في تأليفه لها-، والذوق في المعنى؛ بحيث لم تكن تلك الرموزُ جافةً عن المعاني الأدبية، ويُجَلِّي فيها التناسب بين التعبير والمعنى.

وكما ترى؛ فإنه يختلف عن هذا البحث من حيث المقصود، وإن كان في ظاهر الأمر يوجد شيء من التوافق.

---

(١) ولم تكن دراستهما لجميع المنظومة على الترتيب والاستقصاء، بل نظرة عامة، وإشارة بالمثال المخصص على العموم، كما هو شأن الأبحاث في الاختصار.

والثاني: تناوَل بحثُ فضيلته الكلامَ علىٰ ثلاثة جوانب: الإعدادي، والعرضي، والتربوي.

فأما الجانب الإعدادي: فاشتمل علىٰ بيانٍ لصنيع الإمام الشاطبي ﷺ في قصيدته؛ من حيث كونها نظمًا، وأنه أدعىٰ للحفظ من المنثور، وكونه نَصَّ علىٰ عنوانها؛ مما يتلمَّح فيه القارئُ الكريمُ فحواها، ويعرف محتواها، ويكون أدعىٰ كذلك للتشبُّث بها، كما تطرَّق إلىٰ الضوابط التي التزمها الإمامُ في قصيدته ليسير عليها؛ لئلا يحصل اللبْس والخلط في فَهمها، وقد جعل بحرَها من الطويل؛ ليسعفه ذلك البحر في الإبحار.

وأما الجانب العرضي: فاشتمل علىٰ دقته في التزام منهجه، ومراعاته للأسلوب الأدبي الرفيع الماتع في تقرير القراءات وعزوها، وخصوصيته في الصياغة العلمية وترتيب المسائل وتقسيمها؛ حيث لم يلتزم بما هو في «التيسير» -الذي هو أصل قصيدته-، وبراعته في الاختصار، وإيراد الإشكالات ومِن ثَم الإجابة عنها، والاحتراز من اللبْس -الذي قد يطرأ بسبب كثرة القراءات وتشعُّبها-، وتكرار المسائل التي قد تُنسىٰ بسبب طول العهد بها، وتأدبه مع المخالف، وعدم إغفاله مباحثَ علوم القرآن والعربية، وتوجيه القراءات، وأمانته العلمية.

وكما ترىٰ؛ فإن هذين الجانبَين لا عَلاقة بينهما وبين هذا البحث.

وأما الجانب التربوي: فاشتمل علىٰ ذكر جملة من اللطائف التربوية من حيث تزكية النفوس، والاعتماد علىٰ الله تعالىٰ، والحث علىٰ الجد، والتلطف والتشويق في العرض؛ لدفع السآمة، وإتقان العمل.

والفرق بينه وبين هذا البحث: أنه يُعَنْوِن البيتَ بما يتناسب معه، ومِن ثَم يشير إلىٰ مقصود الناظم فيه دون شرح.

وأما هذا البحث: فقد قسَّمتُه إلىٰ أربعة مباحث: في القرآن، وفي الأدب مع النفس، وفي الأدب مع الغير، وفي المحاذير، وتحت كل مبحث جملةٌ من المطالب.

ووضعتُ عُنوانًا لكل مطلب من تلك المطالب علىٰ ما أتلمَّحُه من البيت، ومِن ثَم أقوم بشرحه؛ مُطرِّزًا بالآيات والأحاديث وأقوال السلف وأحوالهم، وربط ذلك بالواقع أحيانًا.

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من: مقدمة، وأربعة مباحث، وفهارس، وذلك علىٰ النحو التالي:

- **المقدمة**: وتحوي بيانًا بأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وخطة البحث، والمنهج الذي سرتُ عليه.
- **المبحث الأول: الوصاية بالقرآن بالكريم، وفيه ستة مطالب:**

المطلب الأول: القرآن حبل الله ﷻ.

المطلب الثاني: القرآن لا يَخلَق.

المطلب الثالث: القرآن شفيع.

المطلب الرابع: فيه الغُنْية والكفاية.

المطلب الخامس: التمسك به، وعدم هجره.

المطلب السادس: الإخلاص فيه.

- **المبحث الثاني: الأدب مع النفس، وفيه سبعة مطالب:**

المطلب الأول: الالتجاء إلىٰ الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وسؤال الله الحماية من الرياء والسمعة.

المطلب الثاني: الجد والحرص، واستفراغ الوسع في طلب العلم.

المطلب الثالث: التواضع، وعدم تزكية النفس.

المطلب الرابع: الصدق.

المطلب الخامس: سلامة الصدر.

المطلب السادس: الصبر.

المطلب السابع: الحرص على الأوقات.

- **المبحث الثالث: الأدب مع الغير، وفيه خمسة مطالب:**

المطلب الأول: ثناؤه على المتقدمين.

المطلب الثاني: الصحبة.

المطلب الثالث: الحرص على نفع الناس.

المطلب الرابع: الوئام والمحبة.

المطلب الخامس: النصح للمسلمين.

- **المبحث الرابع**: المحاذير، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الغِيبة.

المطلب الثاني: الذنوب والمعاصي.

- **الخاتمة**: وفيها أهم ما توصلتُ إليه.
- **الفهارس**.

منهج البحث:

١. كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني.

٢. عزو الآيات بأرقامها إلى سورها في نفس المتن.

٣. تخريج الأحاديث والآثار التي ذكرتها في المتن باختصار، وما كان في الحاشية أشرت إلى موضع وروده فقط.

٤. إذا كان الحديث في «الصحيحين» أو أحدهما= اقتصرت عليه.

٥. أحيانًا أذكر تصحيحَ الإمام الألباني مهمَلًا دون عزو؛ فيُعلَم بهذا أنه في أحد السنن الأربعة التي خرَّجها -وهي التي أحلتُ إليها في التخريج-، وذلك عند رقم الحديث نفسه، وإن كان في غيرها عزوتُه.

٦. إثبات أسماء المصادر والمراجع في الهامش، مع ذكر المؤلف عند أول موضع باختصار، وربما ذكرتها بما اشتُهِرت به، نحو: «تفسير الطبري» بدلًا من: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، و: «السير» بدلًا من: «سير أعلام النبلاء»؛ لشهرتها بها، وخشيةً من إثقال الحواشي، مع إثبات الاسم الحقيقي والمشهور في قائمة المصادر.

٧. أعبر عن كتاب: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، للنووي بـ: «شرح النووي»؛ اختصارًا.

٨. لا أتطرق للتعريف بالأعلام، ولا الأماكن؛ وذلك طلبًا للاختصار.

٩. قمتُ بتصدير أقوال العلماء بخط غامق؛ ليسهل تمييزه في سرد الكلام.

المبحث الأول

الوصاية بالقرآن بالكريم

المطلب الأول

القرآن حبل الله ﷻ

قال الإمام الشاطبي رحمه الله:

٥. وَبَعْدُ فَحَبْلُ اللهِ فِينَا كِتَابُهُ فَجَاهِدْ بِهِ حِبْلَ الْعِدَا مُتَحَبِّلَا

إن القرآن الكريم هو حبل الله الممدود، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: (حبل الله: القرآن)(١)، وقال ﷺ: «أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللهِ ﷻ، هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَىٰ ضَلالَةٍ»(٢)، وقال: «أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ؛ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٦٤٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ح ٦١٧٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف، كتاب: فضائل القرآن، في التمسك بالقرآن (١٦/ ٤١٤ - ح ٣٢٠٠٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٢٢ - ح ١٧٩٢)، وصحَّح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٣٣٠ - ح ٧١٣).

ومعنىٰ (حَبل الله):

قيل: عَهدُه، **وقيل:** السبب الموصل إلىٰ رضاه، **وقيل:** نوره الذي يهدي به[(١)].

وفي وصف القرآن بالحَبْل: بيانٌ بأنه يُوصَل به إلىٰ زوال الخوف، والنجاة من الجزَع والذُّعر، وهو السبب الذي مدَّه اللهُ تعالىٰ لعباده؛ ليصلوا به إلىٰ رضاه وكرامته، وفي ذلك حثٌّ علىٰ التمسك به، وشبَّه المعلوم بالمحسوس؛ إبانةً لظهور كونه وُصلةً إليه تعالىٰ وصلة المحسوس بعضها إلىٰ بعض[(٢)].

وهو من أعظم أنواع الجهاد، وقد وصفه الله بأنه جهاد كبير، فقال: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [الفرقان]؛ لأن مجاهدة السفهاء بالحُجج أكبَرُ من مجاهدة الأعداء بالسيف، أو لأنه جهاد مع كل الكفرة؛ لأنه مبعوث إلىٰ كافة القرىٰ[(٣)].

والجهاد به يتضمن: المواصلة فيه بلا فتور، وتلاوة ما فيه من القوارع والزواجر، والأوامر والنواهي، والحجج والبراهين والأدلة[(٤)]، **ومن آثار ذلك:** تأثيره علىٰ البواطن تأثيرًا يفوق الظواهر، وقطع آمال الكفار عما يريدونه من المَيل إلىٰ دينهم[(٥)]؛ فمن جاهَد بالقرآن= حماه من الشهوات المُحرِقة، والشبهات المضلَّة.

---

(١) انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٧/ ٤٢٠)، ومطالع الأنوار، لابن قرقول (٢/ ٢١٧)، وشرح النووي (١٥/ ١٧٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٦٤٣)، والبغوي (٢/ ٧٨)، والتنوير، للصنعاني (٨/ ١٢٩).

(٣) انظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٢٨).

(٤) انظر: إبراز المعاني، لأبي شامة (١/ ٤٢)، وتفسير القرطبي (١٥/ ٤٥٠)، وفتح القدير، للشوكاني (٤/ ١٠٩).

(٥) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٧/ ٤٣٢)، وبيان المعاني، للعاني (٢/ ٩١).

والجهاد بالقرآن سبب للانقياد والإقرار بفرائض الله، والإذعان للعمل به طوعًا وكرهًا، وهو سبب في نصرِ الحق وقمعِ الباطل، وصرفِ شرَّ الأعداء(١).

وفي الآية إلماحةٌ بأن القرآن أصل العلوم، ومنبع الفهوم، وسلاح يُعجِز الخصوم، وكما **قال السيوطي** رحمه الله: (وإن كتابنا القرآنَ لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها)(٢)، **وقال ابن القيم** رحمه الله:

فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الْهُدَىٰ ... فَالْعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ(٣)

◆ ◆ ◆

المطلب الثاني
القرآن لا يَخلَق

قال الإمام الشاطبي رحمه الله:

٦. وَأَخْلِقْ بِهِ إِذْ لَيْسَ يَخْلُقُ جِدَّةً ... جَدِيدًا مُوَالِيهِ عَلَىٰ الْجِدِّ مُقْبِلَا

من معجزات القرآن: أنه لا يَخْلَق -أي: لا يَبلىٰ- عن كثرة التَّرداد؛ لأنه كلام الله ﷻ، يُطمئن القلبَ، ويشرح الصدر، ويدل علىٰ الخير، ويحذر من الشر، ويُدخل الجنةَ، وينجي من النار، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد]، ومِن المعلوم: أن القرآنَ ذِكرٌ، وهو أعظمُ الذِّكر، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل]، وقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، وقد جاء: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ**

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٠)، والسعدي (٦٨٢).

(٢) الإتقان (١/ ٤).

(٣) النونية، البيت: (٧٣٦).

مَأْدُبَةُ اللهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَةِ اللهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللهِ، وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ، وَالشَّافِعُ النَافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ يَتَمَسَّكُ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمَ، وَلا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، اُتْلُوهُ فَإِنَّ اللهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَىٰ تِلاوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ: أَلِفٌ وَلَامٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ عَشْرًا، وَلَامٌ عَشْرًا»(١).

والمقصود: أنه لا يزول رَونقُه ولذة قراءته وطراوة تلاوته واستماع أذكاره وأخباره من كثرة تَكراره، علىٰ خلاف كلام المخلوقين؛ ولذا كلما زاد العبد من تَكراره= ازداد في حلاوته، وإن لم يفهم معناه(٢).

وقد قال الشاطبي رحمه الله في وصفه:

١١. وَخَيْرُ جَلِيسٍ لَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ وَتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلَا

◆ ◆ ◆

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف، كتاب: فضائل القرآن، في التمسك بالقرآن (١٦/ ٤١٥ - ح ٣٢٠٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١١٥ - ح ١٧٨٦)، وضعَّفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٠٢ - ح ١٤٥)، والألباني في السلسلة الضعيفة (١٤/ ٧٨٥ - ح ٦٨٤٢)، والحديث وإن كان ضعيفًا إلا أنه حق، ومطابق لوصف القرآن.

(٢) انظر: تحفة الأبرار، للبيضاوي (١/ ٥٣٥)، والكاشف، للطيبي (٥/ ١٦٥٨)، وقوت المغتذي، للسيوطي (٢/ ٧٢٩)، ومرقاة المفاتيح، للقاري (٤/ ١٤٧٣).

المطلب الثالث

القرآن شفيع

قال الإمام الشاطبي رحمه الله:

١٠. وَإِنَّ كِتَابَ اللهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ ....

ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اِقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**»(١)، فهذا فيه بيان أن القرآن كله يشفع لأصحابه، وقد جاء النَّص بسور مخصوصة أيضًا، منها:

١. البقرة وآل عمران، قال ﷺ: «**اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**»(٢).

والزهراوان: تثنية زَهراء، بمعنىٰ: منيرة، ومضيئة شديدة الإضاءة؛ وذلك لهدايتهما قارئَهما وتنوير قلبه، أو لِما يسبب له أجرُهما من النور يوم القيامة، فكأنهما بالنسبة إلىٰ ما عداهما عند الله مكانَ القمرين من سائر الكواكب، أو لِما فيهما من المعاني المنيرة، وقيل: شُبِّهتا بالقمرين لاشتهارهما.

ولا شك أن نور كلام الله أشد وأكثر ضياء، وكل سورة من سور القرآن زهراء؛ لِما فيها من نورِ بيانِ الأحكام والمواعظ وغير ذلك من الفوائد، ولِما فيها من شفاء

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: صلاة المسافرين (٢٥٢).

(٢) نفس الحديث السابق.

الصدور وتنوير القلوب وتكثير الأجر لقاريها.

والغَيايَة: كل شيء يُظل الإنسانَ فوق رأسه من السَّحابة والغبرة، والمقصود: سحابتان تُظلان قارئهما عن حَرِّ الموقف وكرب ذلك اليوم.

وفِرْقان من طير صواف: القطيعان، أي: طائفتان منها، باسطات أجنحتها متصلًا بعضها ببعض.

والحديث ذكر ثلاثة أمثلة: الغمامة، والغياية، والطير، وهي لبيان أقسام القارئين:

فالأول: لمن يقرؤهما ولا يفهم المعنىٰ.

والثاني: للجامع بين التلاوة ودراية المعنىٰ.

والثالث: لمن ضم إليهما التعليم والإرشاد.

ويحاجان: يدافعان عنه الجحيم والزبانية(١).

٢. سورة المُلك، قال ﷺ: «**إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ، ثَلاثِينَ آيَةً، شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّىٰ غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ:** ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»(٢).

وهنا أبهم أولًا، ثم بيَّن، وفي هذا تعظيم وتفخيم لشأنها(٣).

وقال أبو هريرة ﷺ: (نِعْم الشفيعُ القرآنُ لصاحبه يوم القيامة)(٤).

---

(١) انظر: إكمال المعلم (٣/ ١٧٣)، وتحفة الأبرار (١/ ٥٢٣)، والتيسير، للمناوي (١/ ١٩٣)، والتنوير (٢/ ٦٠٦)، ومرعاة المفاتيح، للمباركفوري (٩/ ٣٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٨٢٧٦)، والترمذي (٢٨٩١) وحسَّنه، وحسَّنه الألباني.

(٣) انظر: الكاشف (٥/ ١٦٦٧)، والتنوير (٣/ ٦١٨).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف، كتاب: فضائل القرآن، في التمسك بالقرآن (١٦/ ٤٢٩ - ح ٣٢٠٤٢).

ولا ريب أن هذا الفضلَ منوطٌ بمن قرأه متدبِّرًا، عاملًا بما فيه، متأدبًا بآدابه، مُحِلًّا لحلاله، محرِّمًا لحرامه(١).

المطلب الرابع
فيه الغُنية والكفاية

قال الإمام الشاطبي رحمه الله:

١٠..... وَأَغْنَىٰ غَنَاءٍ وَاهِبًا مُتَفَضِّلَا

فالقرآن هداية وكفاية، وكفايتُه لا نظير لها في كل الأمور، وقد قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت]، وهذا عام في كل أوجه الكفاية؛ الدلائلية وغيرها، **قال الشنقيطي** رحمه الله: (فإنكاره -جل وعلا- عليهم عدمَ الاكتفاء بهذا الكتاب عن الآيات المقترحة يدل علىٰ أنه أعظم وأفخم من كل آية، وهو كذلك؛ ألا ترىٰ أنه آية واضحة، ومعجزة باهرة، أعجزَت جميعَ أهل الأرض، وهي باقية تتردد في آذان الخَلق غضَّةً طريةً حتىٰ يأتي أمر الله، بخلاف غيره من معجزات الرسل -صلوات الله عليهم وسلامه-؛ فإنها كلها مضت وانقضت)(٢)، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]، وقال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي**»(٣).

---

(١) انظر: التنوير (٢/ ٦٠٦)، ومرقاة المفاتيح (٤/ ١٤٦٠).

(٢) أضواء البيان، للشنقيطي (٢/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب أهل بيت النبي ﷺ (٣٧٨٦)، وصححه الألباني.

ومن هنا: فإن المُحاجَّة بالقرآن لا يقوم لها مُعارِض، وهي الأصل في هذا الباب، قال الله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق]، فمن رام هداية نفسه وصلاحَها فعليه بكتاب الله ﷻ؛ ففيه الهُدىٰ والنور، والخير والفلاح، ولشدة احتياج البشرية إليه= حمِد الحقُّ ﷻ نفسَه علىٰ نعمة إنزاله، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾﴾ [الكهف].

(تنبيه): لا يَعني هذا إقصاءَ السُّنَّة[(١)]؛ فهي وحي كما القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر]، وجعل الله طاعة رسوله ﷺ طاعةً له، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وتأمَّلْ في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، كيف كرَّر فعلَ الأمر بالطاعة مع طاعته وطاعة رسوله ﷺ؛ ليبيِّن أن وجوب طاعة رسوله ﷺ مطلقة ولو لم يأت في القرآن ما يدل عليها[(٢)]، وقال ﷺ: **(أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبعانُ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ، يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدتُم فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوه، ومَا وجدتُم فيه مِن حَرَامٍ فحَرِّمُوه)**[(٣)]، وقال: **(لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ)**[(٤)]، وقال **الزُّهري** رحمه الله: (مِن الله الرسالة، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم)[(٥)].

---

(١) كما تخبَّط بذلك: القرآنيُّون، وهم علىٰ غير هُدىٰ.

(٢) انظر: الرسالة التبوكية، لابن القيم (٤٣ - ٤٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠ - ح ١٧٢١٣)، وأبو داود، باب: لزوم السُّنَّة (٤٦٠٤)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥)، وصححه الألباني.

(٥) رواه البخاري في صحيحه تعليقًا، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (٥/ ٢٠٩)، وخَلق أفعال العباد، له (٧٦)، وشرح السنة، للبغوي (١/ ٢١٧).

المطلب الخامس

التمسك به، وعدم هجره

قال الإمام الشاطبي رحمه الله:

١٥. فَيَا أَيُّهَا الْقَارِي بِهِ مُتَمَسِّكًا مُجِلًّا لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مُبَجِّلَا

قال الله ﷻ في كتابه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان]، ففي الآية الكريمة إنذار عظيم لكل هاجر لكتاب الله تعالىٰ؛ حيث كان خصمُه في هذه القضية: رسولَ الله ﷺ، **قال الشنقيطي** رحمه الله: (معنىٰ هذه الآية الكريمة ظاهر، وهو: أن نبينا ﷺ شكَا إلىٰ ربه هجرَ قومه -وهم: كفار قريش- لهذا القرآن العظيم، أي: ترْكهم لتصديقه والعمل به، وهذه شكوىٰ عظيمة، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم، ولم يعتقدْ ما فيه من العقائد ويعتبِرْ بما فيه من الزواجر والقَصص والأمثال)[(١)].

وقد أطلق ﷺ الأمر بقراءته في قوله: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ**»، وهذا فيه: حثٌّ علىٰ قراءته في كل وقت، وعلىٰ كل حال؛ لإطلاق الأمر بذلك[(٢)].

وفي هذا تنبيه علىٰ خطورة هجره، وقد قال ﷺ: «**تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ؛ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**»[(٣)]، وقال: «**اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ؛ فإنه**

(١) أضواء البيان (٦/ ٣٥٠).

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين (٤/ ٦٣٦)

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (٥٠٣٣)، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: صلاة المسافرين (٢٣١).

أَشَدُّ تَفَصِّيًا[1] مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ»[2].

◆ ◆ ◆

المطلب السادس
الإخلاص فيه

قال الإمام الشاطبي رحمه الله:

٢٤. ..... وَلَـيْـسَ عَـلَـىٰ قُـرْآنِـهِ مُـتَـأَكِّـلَا

وهنا يشير الإمام رحمه الله إلىٰ ضرورة الإخلاص، وأن يكون قصدُه ومبتغاه: وجهَ الله وحده، ولا يطلب من ورائه مأكلةً ولا رئاسة؛ فهذا هو الهلاك بعينه، وطالب العلم متىٰ نزل إلىٰ ما في أيدي الناس، وتملَّق لهم= ذهبَت بركةُ علمه، وعاد سعيُه وبالًا عليه، ومدْحُهم ذمًّا؛ ولذا أوصىٰ الله كلَّ أنبيائه أن يستغنوا عما في أيدي الناس؛ لأن أجرهم علىٰ الله، فكل نبي قال لقومه: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[هود: ٢٩].

وهكذا الكُمَّل من عِباد الله، كما فعل موسىٰ عليه السلام مع المرأتين: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾[القصص]، والخَضِر لمَّا بنىٰ الجدار لليتيمَين، ولمَّا بنىٰ السدَّ ذو القَرنين؛ فإنهم عرضوا عليه خراجًا مقابل بنائه،

---

(١) بالفاء والصاد المهملة، أي: تفلُّتًا وذهابًا، **والمعنىٰ**: أنه شبَّه من يتفلَّت منه بعض القرآن بالناقة التي انفلتت من عُقُلِها. انظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (٢٤/ ١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (٥٠٣٢) واللفظ له، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: صلاة المسافرين (٢٢٨).

والمراد بالنَّعَم هنا: الإبل خاصة؛ لأنها التي تُعقَل. انظر: شرح النووي (٦/ ٣١٨).

فـ: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]، ومِن جميل ما يُذكر هنا: **قول الحسن البصري** ﷺ: (لا يزال الرجلُ كريمًا علىٰ الناس حتىٰ يطمع في دنياهم؛ فيستخفُّون به ويكرهون حديثَه)(١)، وقيل لبعض أهل البصرة: (مَن سيِّدُكم؟ قال: الحسن، قال: بِمَ سادكم؟ قال: احتجْنا لعلمه واستغنىٰ عن دنيانا)(٢)، وحدَّث عيسىٰ بنُ يونس السَّبيعيُّ المأمونَ؛ فأمر له بعشرة آلاف، فقال عيسىٰ: لا أقبل علىٰ حديث رسول الله ﷺ شربةَ ماء؛ فزاده المأمون عشرة آلاف أخرىٰ، فلم يَقبلها، وقال: لو ملأت هذا المسجدَ لي ذهبًا لم أقبله(٣).

فهؤلاء -من تمام إخلاصهم- لم يكونوا يقبلون شيئًا مقابل تعليمهم؛ خشيةَ أن تدخل الدنيا في قلوبهم؛ فتتعكَّر نواياهم(٤).

ومن أخطر الأمور: التأكُّل بالقرآن، وعدم الإخلاص فيه، وطلب البلوغ به إلىٰ مطامعَ دنيوية دَنيَّة، وتعجُّل الأجر في الدنيا من مالٍ أو شُهرة أو غير ذلك، وبيَّن سبحانه سوءَ هذا الفعل، وأنه يقود إلىٰ الصدود، فقال: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩﴾ [التوبة]، وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا

---

(١) انظر: فيض القدير، للمناوي (١/ ٤٨١)، وانظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١/ ٢٤٢).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: الحث علىٰ طلب العلم، لأبي هلال العسكري (٧٤).

(٤) ومعلوم أن المال إذا جاء من غير استشراف= فلا بأس بأخذه وقبوله، بل هو محمود مبارَك، ففي الصحيحين: قال ﷺ لحكيم بن حزام ﷺ: «**يَا حَكِيمُ: إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ؛ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ**»، وقال عمر ﷺ: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه مَن هو أفقر إليه مني، فقال ﷺ: «**خُذْهُ، إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**».

قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ [آل عمران]، تأملْ: ﴿قَلِيلًا﴾؛ فمهما كثرت في عينك فهي قليلة؛ لأنك بهذا تبيع الباقي بالفاني، والنفيس بالخسيس، والله المستعان.

وعن سهل بن سعد الساعديِّ ﷺ، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ يومًا ونحن نقترئُ(١)، فقال: «**الْحَمْدُ لله، كِتَابُ الله وَاحِدٌ، وَفِيكُمُ الْأَحْمَرُ، وَفِيكُمُ الْأَبْيَضُ وَفِيكُمُ الْأَسْوَدُ، اِقْرَؤُوهُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَوَّمُ السَّهْمُ؛ يَتَعَجَّلُ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُهُ**»(٢)، وعن خيثمة ابن أبي خيثمة البصري ﷺ، **قال**: كان رجل يطوف ويقرأ سورة يوسف فيجتمع الناس عليه، فإذا فرغ سأل(٣)، فقال الحسن: كنتُ مع عمران بن حصين فمر به السائل، فقام فاستمع لقراءته، فلما فرغ سأل، فقال عمران: إنا لله وإنا إليه راجعون(٤)، اذهب بنا؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيَسْأَلِ اللهَ بِهِ، فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ فَيَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ**»(٥)، **وقال عمر بن الخطاب** ﷺ: (قد أتىٰ عليَّ زمان وأنا أحسب من قرأ القرآن يريد به وجه الله، فقد خُيِّل لي الآن بأَخَرةٍ أني أرىٰ قومًا قد قرؤوه يريدون به الناسَ، فأَريدوا اللهَ بقراءتكم، وأَريدوا اللهَ بأعمالكم)(٦)، **وقال الآجُرِّي** ﷺ: (فأما من قرأ القرآن للدنيا ولأبناء

---

(١) افتعال من القراءة، أي: نقرأ القرآن.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: ما يجزئ الأميَّ والأعجميَّ من القراءة (ح ٨٣١)، وصححه الألباني.

(٣) أي: سأل الناس شيئًا مقابل قراءته.

(٤) وذلك لابتلاء القارئ بهذه المصيبة -التي هي: السؤال عن الناس بالقرآن-، أو لابتلاء عمران بمشاهدة هذه الحالة الشنيعة، وهي مصيبة. انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري (٨/ ٢٣٦).

(٥) أخرجه الترمذي، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في تعليم القرآن (ح ٢٩١٧).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه، كتاب: فضائل القرآن، باب: من كره أن يتأكَّل بالقرآن (١٦/ ٤١٢ - ح ٣١٩٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن، فصل: في ترك المباهاة بالقرآن (٥/ ٧٢ - ٢٣٧٩)، وحسَّن المحققُ إسنادَه.

الدنيا؛ فإن مِن أخلاقه أن يكون حافظًا لحروف القرآن، مضيِّعًا لحدوده، متعظِّمًا في نفسه، متكبرًا علىٰ غيره، قد اتخذ القرآنَ بضاعةً، يتأكَّل به الأغنياءَ، ويستقضي به الحوائج، يعظِّم أبناءَ الدنيا، ويحقر الفقراء، إنْ علَّم الغنيَّ رفَق به؛ طمعًا في دنياه، وإنْ علَّم الفقيرَ زجره وعنَّفه؛ لأنه لا دنيا له يطمع فيها)[1].

(١) أخلاق أهل القرآن، للآجري (٨٧).

المبحث الثاني

الأدب مع النفس

المطلب الأول

الالتجاء إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وسؤال الله الحماية من الرياء والسمعة

قال الشاطبي رحمه الله:

١. بَـدَأْتُ بِبِسْمِ اللهُ فِي النَّظْمِ أَوَّلَا تَـبَـارَكَ رَحْـمَـانًـا رَحِـيـمًـا وَمَـوْئِـلَا

وقال:

٤٣. وَنَـادَيْـتُ أَللَّهُمَّ يَـا خَيْرَ سَامِعٍ أَعِـذْنِـي مِـنَ التَّسْمِيعِ قَـوْلًا وَمِفْعَلَا

قارِنْ هذا مع قوله في الخاتمة:

١١٦٠. وَقَـدْ وَفَّـقَ اللهُ الكَرِيمُ بِمَنِّهِ لِإِكْـمَـالِـهَـا حَـسْـنَـاءَ مَيْـمُـونَـةَ الْـجِـلَا

وقوله:

١١٦٣. وَتَمَّتْ بِحَمْدِ اللهِ فِي الْخَلْقِ سَهْلَةً مُـنَـزَّهَـةً عَـنْ مَـنْـطِـقِ الْـهُـجْـرِ مِـقْـوَلَا

فانظرْ كيف التجأ إلىٰ الله واستعان به، ونسب الفضل إليه؛ ابتداءً وانتهاءً!، فوالله ما نِيلت الخيراتُ إلا بهذا، ولا فُتح علىٰ العبد إلا به، وفي الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وقد أوصىٰ النبيُّ ﷺ معاذَ بنَ جبل رضي الله عنه فقال له: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ! لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ**

عِبَادَتِكَ»[(١)]، وفي حديث ابن عباس ﷺ: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[(٢)]، ولقد صدق من قال، وأجاد في المقال:

إِذَا كَانَ عَوْنُ اللهِ لِلْمَرْءِ مُسْعِفًا ... تَهَيَّا لَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مُرَادُهُ

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَىٰ ... فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ[(٣)]

ولو أردتُ ذكرَ أمثلةٍ علىٰ الْتِجاء الرسول ﷺ بربِّه؛ لطال بي المقام، ولزمني استعراض كل لحظة من لحظات حياته ﷺ؛ إذْ كان لا ينفك عن ذلك طَرفةَ عين!.

ولقد كان السلف يلجؤون إلىٰ الله ليعلمهم، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة]، وصدق الإمام أحمد ﷺ لما **قال**: (إنما العلم مواهب يؤتيه الله مَن أحب مِن خلقه، وليس يناله أحد بالحسَب)[(٤)]، **وقال**: (العِلم مواهب مِن الله، ليس كل أحد يناله)[(٥)].

وكان شيخ الإسلام ﷺ **يقول**: (إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تُشكل عليَّ؛ فأستغفر الله تعالىٰ ألفَ مرة أو أكثر أو أقل حتىٰ ينشرح الصدر، وينحل إشكالُ ما أشكل -قال-: وأكون إذْ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذِّكر والاستغفار إلىٰ أن أنال مطلوبي)[(٦)]، **وكان**

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٤٤ - ٢٤٥)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار (١٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٣٢٠ - ح ٧٩٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة (٢٥١٦)، وصححه الألباني.

(٣) ذكره الأتيوبي في ذخيرة العقبىٰ (٣٩/ ٤٠٢).

(٤) انظر: طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلىٰ (١/ ٧٥).

(٥) انظر: المصدر السابق (١/ ٣٢٣).

(٦) انظر: العقود الدرية، لابن عبد الهادي (١٠ - ١١).

يقول: (ربما طالعت علىٰ الآية الواحدة نحو مائة تفسير!! ثم أسأل الله الفَهمَ، وأقول: يا مُعلِّمَ آدم وإبراهيم علِّمني، وكنتُ أذهب إلىٰ المساجد المهجورة ونحوها، وأمرِّغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالىٰ، وأقول: يا معلِّم إبراهيم فهِّمني)[(١)].

ووالله ما قصَد اللهَ أحدٌ إلا وجد بُغيتَه، ونال تحفتَه، وانفتحت في وجهه المغاليق، (كان جعفر ابن محمد يقول: أَستلطِفُ اللهَ لكل عسير؛ فإن تيسير العسير علىٰ الله يسير، جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه)[(٢)]، هذا الإمام ابن الجوزي ﷺ قد فتح الله عليه أبواب العلوم، حتىٰ صار يَغرف من كل فنٍّ!، لمَّا ذَكر فضائلَ الله عليه في أبواب العلوم، وأبواب العبادات، وفي نفع الخلق ودعوتهم -وذكر من ذلك الشيءَ الكثيرَ-، **ختَم ذلك بقوله لولده موصيًا**: (وها أنا قد ترىٰ ما آلَتْ حالي إليه، وأنا أجمعه لك في كلمة واحدة، هي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢])[(٣)].

وهذا الإمام ابن القيم ﷺ، **يقول في مقدمة كتابه: «مفتاح دار السعادة»**: (وسميته: «مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية أهل العِلم والإرادة»؛ إذْ كان هذا من بعض النُّزُل والتُّحَف التي فتح الله بها عليَّ حين انقطاعي إليه عند بيته، وإلقائي نفسي ببابه مسكينًا ذليلًا، وتعرُّضي لنفحاته في بيته وحولَه بُكرةً وأصيلًا؛ فما خاب من أنزل به حوائجَه، وعلَّق به آمالَه، وأصبح ببابه مقيمًا، وبحِماه نزيلًا)[(٤)].

ومن نواقض ذلك كله: الرِّياء والسُّمعة؛ فإنه ما تسربل بها أحد إلا بعُد عن الله

---

(١) المصدر السابق (٣٨).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/ ٤٤٨).

(٣) لفتة الكبد إلىٰ نصيحة الولد (٣٧).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٠).

وتوفيقه، وصدق الشاعر أبو الحسن التهامي لما قال:

ثَـوْبُ الـرِّيَـاءِ يَـشِـفُّ عَـمَّـا تَـحْـتَـهُ ... وَإِذَا الْـتَـحَـفْـتَ بِـهِ فَـإِنَّـكَ عَـارِ[1]

وقد سُئل الإمام أحمدُ رحمه الله عن الإخلاص، فقال: (بهذا ارتفع القوم!)[2].

◆ ◆ ◆

المطلب الثاني

الجد والحرص، واستفراغ الوسع في طلب العلم

قال الشاطبي رحمه الله:

٤٣. وَهُـنَّ اللَّوَاتِي لِلْمُوَاتِي نَصَبْتُهَا ... مَنَاصِبَ فَانْصَبْ فِي نِصَابِكَ مُفْضِلَا

قارِنْ هذا مع قوله:

٥٧. .... فَـزَاحِـمْ بِـالـذَّكَـاءِ لِـتَـفْـضُـلَا

الله تعالىٰ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت]، وقال ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[3]، **وقال أبو الدرداء** رضي الله عنه: (إنما العِلم بالتعلُّم)[4]، ولقد عانىٰ الأئمة، وتحملوا المشاقَّ في سبيل العلم

(١) انظر: ديوانه (٣١١)، بيت: (٣٣).

(٢) انظر: طبقات الحنابلة (١/ ٦١).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين (١/ ٢٠٠ - ح ٧١)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: النهي عن المسألة (ح ٢٣٨٦).

(٤) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٣٥٠ - ٤٤٣)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ٤٦١).

وطلب رضا الله؛ فرَفَع الله ذِكرَهم، وشَكَر سعيَهم، وأنالَهم مرادَهم، **قال مكحول** ﷺ: (طفتُ الأرضَ كلَّها في طلب العلم)[١]، **وقال ابن المقرئ** ﷺ: (مشيتُ بسبب نسخة مُفَضَّل بن فَضالة سبعين مرحلة، ولو عُرضتْ علىٰ خبَّاز برغيفٍ لم يقبلها)[٢]، **وقال أبو علي الوَخْشي** ﷺ: (رحلتُ، وقاسيتُ الذلَّ والمشاقَّ، ورجعتُ إلىٰ وَخْش...، لقد كنتُ بعسقلان أسمع من ابن مصحِّح، وبقيتُ أيامًا بلا أكل، فقعدتُ بقرب خبَّاز؛ لأشم رائحة الخُبز، وأتقوىٰ بها!)[٣]، **وقال ابن الجوزي** ﷺ: (ينبغي لطالب العلم أن يكون جُلَّ هِمَّته مصروفًا إلىٰ الحفظ والإعادة، فلو صح صرْفُ الزمانِ إلىٰ ذلك= كان الأَولىٰ، غير أن البَدن مطية، وإجهاد السَّير مظنة الانقطاع، ولمَّا كانت القُوىٰ تَكِلُّ؛ فتحتاج إلىٰ تجديد، وكان النَّسخ والمطالعة والتصنيف لا بد منه -مع أن المُهم: الحِفظ-؛ وجب تقسيم الزمان علىٰ الأمرين: فيكون الحفظ في طرفي النهار وطرفي الليل، ويوزع بالباقي بين عملٍ بالنَّسْخ والمطالعة، وبين راحةٍ للبدن وأخْذٍ لِحَظِّهِ)[٤].

ومن لطيف ما يُذكَر هنا: أن الإمام الشاطبي بدأ منظومته بشاطِبةَ -في الأندلس-، وأنهاها بالقاهرة -في مصر-[٥]!.

◆ ◆ ◆

(١) انظر: السير، للذهبي (٥/ ١٥٨).

(٢) انظر: السير (١٦/ ٤٠٠).

(٣) انظر: السير (١٨/ ٣٦٧).

(٤) صيد الخاطر (٣٥٣).

(٥) انظر: غاية النهاية، لابن الجزري (٢/ ٩٢٠).

المطلب الثالث

التواضع، وعدم تزكية النفس

الإمام الشاطبي ﵀ له حقٌّ علينا، وقد نادىٰ بأن تُتلقىٰ قصيدتُه بالقبول، والظن الحسن الجميل، وأن يُغضَّ الطرْفُ عن الزلل والخلل، وأن يُصلِح الخللَ -إن وُجد- مَن اكتملتْ عنده الأهلية، وقال -راجيًا منك أن تعذره-: إنه قد اجتهد، والمجتهد لا يعدم الأجر؛ سواء أصاب أو أخطأ، فقال ﵀:

٧٥. أَخِي -أَيُّهَا الْمُجْتَازُ نَظْمِي بِبَابِهِ ... يُنَادَىٰ عَلَيْهِ كَاسِدَ السُّوْقِ- أَجْمِلَا

٧٦. وَظُنَّ بِهِ خَيْرًا وَسَامِحْ نَسِيجَهُ ... بِالإِغْضَاءِ وَالْحُسْنَىٰ وَإِنْ كَانَ هَلْهَلَا

٧٧. وَسَلِّمْ لإِحْدَىٰ الْحُسْنَيَيْنِ إِصَابَةٌ ... وَالأُخْرَىٰ اجْتِهادٌ رَامَ صَوْبًا فَأَمْحَلَا

٧٨. وَإِنْ كَانَ خَرْقٌ فَادَّرِكْهُ بِفَضْلَةٍ ... مِنَ الْحِلْمِ وَلْيُصْلِحْهُ مَنْ جَادَ مِقْوَلَا

قارِنْ هذا مع قوله:

٨٨. يَعُدُّ جَمِيعَ النَّاسِ مَوْلًىٰ لِأَنَّهُمْ ... عَلَىٰ مَا قَضَاهُ اللهُ يُجْرُونَ أَفْعُلَا

٨٩. يَرَىٰ نَفْسَهُ بِالذَّمِّ أَوْلَىٰ لِأَنَّهَا ... عَلَى المَجْدِ لَمْ تَلْعَقْ مِنَ الصَّبْرِ وَالأَلَا

وقوله في الخاتمة:

١١٦٥. وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا ذُنُوبُ وَلِيِّهَا ... فَيَا طَيِّبَ الأَنْفَاسِ أَحْسِنْ تَأَوُّلَا

١١٦٦. وَقُلْ رَحِمَ الرَّحْمَنُ حَيًّا وَمَيِّتًا ... فَتًى كَانَ لِلإِنْصَافِ وَالْحِلْمِ مَعْقِلَا

١١٧٦. عَسَىٰ اللهُ يُدْنِي سَعْيَهُ بِجَوَازِهِ ... وَإِنْ كَانَ زَيْفًا غَيْرَ خَافٍ مُزَلَّلَا

فانظرْ كيف هضَم نفسَه ورآها أَولىٰ بالذم والعيب، وأنها مقصِّرة لم تبلغ العلياء، واعتبر العيبَ الذي يُؤخَذ علىٰ قصيدته هذه، هو: أنها له!!، ثم وصَفَ نظمَه هذا بالرداءة والخطأ، وهو مَن هو في العلم والصلاح والتقوىٰ، وقد نفع الله بقصيدته هذه خلائقَ لا يُحصَون، فرحمه الله تعالىٰ برحمته الواسعة.

وهذا هو شأن أهل العلم: يتواضعون، ويذمُّون أنفسَهم ويهضمونها، ويتلمَّسون العفوَ من القارئ الكريم، وهذه مسألة مهمة لكل مَنْ مَنَّ الله عليه بالتصنيف أو التحديث، وهي: الحذر من الزَّهو والإعجابِ بما خطَّتْه اليدُ، أو نطقتْ به الشفاه؛ فكل خير وفضل إنما هو من الله وحده، قال الله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ومَن حاد عن هذا الأصل= وقع في هاوية الإعجاب، وانجرف في سيله العَرِم، وما أجمل ما قاله الشيخ حافظ الحَكَمي ﷺ:

وَالْعُجْبَ فَاحْذَرْهُ إِنَّ الْعُجْبَ مُجْتَرِفٌ ... أَعْمَالَ صَاحِبِهِ فِي سَيْلِهِ الْعَرِمِ(١)

كان مَخلد بن الحسين ﷺ إذا ذُكِر عنده أخلاقُ مَن سلف ينشد:

لا تَعْرِضَنَّ بِذِكْرِنَا فِي ذِكْرِهِمْ ... لَيْسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَىٰ كَالْمُقْعَدِ(٢)

قال سعيد المؤدِّب ﷺ: قلت لأبي بكر الخطيب -عند قدومي-: أنت الحافظ أبو بكر؟ قال: (انتهىٰ الحفظ إلىٰ الدارقطني)(٣).

لمَّا حرَّر ابنُ القيم ﷺ الكلامَ في مسألة الرجاء -في كلامٍ لشيخ الإسلام الهَروي-، **قال:** (وهذا غاية جهد المقِلِّ في هذا الموضع؛ فمن كان عنده فضلُ

(١) المنظومة الميمية، البيت: (٧٢).

(٢) انظر: حلية الأولياء، لأبي نُعيم (٨/ ٢٦٦).

(٣) انظر: السير (١٨/ ٢٨١).

علم فلْيَجُدْ به، أو فلْيعذر ولا يبادر إلىٰ الإنكار؛ فكم بين الهدهد وسليمان نبيِّ الله -صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه وسلم؟- وهو يقول: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، وليس شيخ الإسلام(١) أعلم من نبي الله، ولا المُعترِض عليه(٢) بأجهلَ من هدهد، وبالله المستعان، وهو أعلم)(٣).

ولما ذكر الخلافَ في مسألة الجنة التي أُهبِط منها آدمُ عليه السلام؛ هل هي جنة الخلد المعروفة، أو هي من جنان الأرض؟ **قال في نهاية كلامه** -متواضعًا لا متعاليًا-: (فهذا موقفُ نظرِ الفريقين، ونهايةُ إقدامِ الطائفتين؛ فمن كان عنده فضلُ علم في هذه المسألة فلْيَجُدْ به؛ فهذا وقت الحاجة إليه، ومن علِم منتهىٰ خطوتِه، ومقدارَ بضاعتِه= فلْيَكِلِ الأمرَ إلىٰ عالمه، ولا يرضىٰ لنفسه بالتنقيص والإزراء عليه، ولْيكن من أهل التُّلول الذين هم نَظَّارة الحرب، إذا لم يكن من أهل الكَرِّ والفَرِّ والطعْن والضرب؛ فقد تلاقتِ الفحول، وتطاعنَتِ الأقران، وضاق بهم المجال في حلبَة هذا المَيدان:

إِذَا تَـلاقَـىٰ الْـفُـحُـولُ فِـي لَـجَـبٍ فَكَيْفَ حَالُ الْبَعُوضِ فِي الْوَسَطِ(٤)

ولمَّا فرغ من كتابه: «مدارج السالكين» **قال**: (فيا أيها القارئ له: لك غُنْمُه، وعلىٰ مؤلفه غُرْمه، ولك ثمرته، وعليه تَبِعَته؛ فما وجدتَ فيه مِن صواب وحقٍّ فاقبلْه، ولا تلتفت إلىٰ قائله، بل انظر إلىٰ ما قال لا إلىٰ مَن قال)(٥).

---

(١) يعني به: الهروي -صاحب منازل السائرين-.

(٢) يريد نفسَه.

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٨٣).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٠ - ١٤٢).

(٥) مدارج السالكين (٤/ ٥٥٤).

وقال في مقدمة «المفتاح»: (هذا وإنما أُودع من المعاني والنفائس رهنٌ عند متأمِّله ومُطالِعه، له غُنْمه، وعلىٰ مؤلفه غُرْمه، وله ثمرته ومنفعتُه، ولصاحبه كدره ومشقتُه، مع تعرُّضه لطعن الطاعنين، ولاعتراض المنافسين، وهذه بضاعته المُزْجاة، وعقله المكدود يُعرَض علىٰ عقول العالمين، وإلقاؤه نفسَه وعِرْضَه بين مخالب الحاسدين، وأنياب البُغاة المعتدين، فلك أيها القارئ صفوُه، ولمؤلفه كدرُه، وهو الذي تَجشَّم غراسَه وتعبَه، ولك ثمرُه، وها هو قد استُهدِف لسهام الراشقين، واستعذَر إلىٰ الله من الزلل والخطأ، ثم إلىٰ عباده المؤمنين)[(١)].

وأختم بنقلَين متينَين للذهبي رحمه الله، **قال:** (إيثار الخمول[(٢)] والتواضع وكثرة الوجَل= من علامات التقوىٰ والفلاح)[(٣)]، **وقال:** (مَن طلب العلم للآخرة= كَسره علمُه، وخشع قلبُه، واستكانت نفسُه، وكان علىٰ نفسه بالمرصاد؛ فلا يفترُ عنها، بل يحاسبها كلَّ وقت ويثقِّفها؛ فإنْ غفل= عنها جَمَحَتْ عَن الطريق المستقيم وأهلكتْه، وَمن طلب العلم للفخر والرياسة، ونظر إلىٰ المسلمين شزرًا، وتحامَقَ عليهم وازدرىٰ بهم= فهذا من أكبر الكِبر، ولا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كبر، فلا حول ولا قوة إلا بالله)[(٤)].

◆ ◆ ◆

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧١).

وانظر له أيضًا: شفاء العليل (١/ ١٨)، وحادي الأرواح (١/ ١٦ - ١٧)، وروضة المحبين (١/ ٢٢ - ٢٣)، وطريق الهجرتين (١/ ١٠ - ١١)، وعدة الصابرين (١١).

(٢) أي: عدم الشهرة.

(٣) السير (١١/ ٢٢٦).

(٤) الكبائر (١٩٧).

المطلب الرابع

الصدق

قال الشاطبي رحمه الله:

٧٩. وَقُلْ صَادِقًا ....

أمر الله ﷻ المؤمنين بالصدق، وأن يكونوا مع أهله، وجعله قرينَ التقوىٰ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة]، وتأملْ قولَه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ٣٣﴾ [الزمر]، مع قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة]؛ كيف جعل الصدقَ سبيلًا إلىٰ بلوغ مرتبة التقوىٰ، والتقوىٰ طريقًا للعلم!.

وبيَّن ﷺ أنه يقود إلىٰ كل خير وفضيلة، فقال: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يَكُونَ صِدِّيقًا**»(١)؛ فهو منزلة عظمىٰ، وطريق أقْوم، وله أثره البالغ في العلم ونشره؛ فاللسان آلة البيان، وبه يكون نشر العلم وبالبَنان، ولا ينبغي لمن أنطقه الله بتوحيده وذِكره، ومنَّ عليه بعلمه أن يَحيف عنه إلىٰ الكذب، بل يجب عليه المداومة برعاية تلك النعمة بلزوم الصدق.

قال الأوزاعي رحمه الله: (تعلَّمِ الصدقَ قبل أن تَعلَّمَ الحديثَ)(٢)، **وقال وكيع** رحمه الله:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ (٤/ ٣٣٩ - ح ٦٠٩٤)، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: قبح الكذب، وحسن الصدق وفضله (ح ٦٥٨٠).

(٢) انظر: الجامع لأخلاق الراوي، للخطيب (٢٠٠).

(هذه صناعةٌ[١] لا يرتفع فيها إلا الصادق)[٢]، **وقال المرُّوذي** رحمه الله: (سُئل أحمد بن حنبل: بِمَ بلغ القومُ حتىٰ مُدِحوا؟ قال: بالصِّدق)[٣]، **وقال عبد الرحمن بن مهدي** رحمه الله: (لو أن رجلًا همَّ أن يكذب في الحديث= أسقطه الله ﷻ)[٤].

ومِن المسلَّم به: أن العلم من أعظم المنائح والهِبات، ولا يضعه الله في قلب فاجر، **ومن المقرَّر:** أن من ترَك الصدق= وقع في الكذب، وحينها: سيركب في قافلة الفجور، والعياذ بالله، قال ﷺ: «**وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»[٥]؛ فبه يتميَّز أهل الشر من أهل الخير.

ومِن آثاره في العلم:

١. قوة حجة صاحبه، **قال عنه ابن القيم** رحمه الله: (ولا واجَه باطلًا إلا أرْداه وصرعه، مَن صال به لم تُرَدَّ صولتُه، ومن نطق به عَلَتْ علىٰ الخصوم كلمتُه)[٦].

٢. صيانته من الاسترسال مع شهوات النفس المهلكة وأهوائها، **قال ابن القيم** رحمه الله: (قال بعضهم: لَم يشمَّ روائحَ الصدق عبدٌ داهَنَ نفسَه أو غيرَه)[٧].

٣. به يبلغ العبد مُناه، ويصل إلىٰ منتهاه، فمن سأل اللهَ الشيءَ بصدق بلَّغه

---

(١) أي: العلم.

(٢) انظر: الجامع لأخلاق الراوي (٢٧٨).

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: المصدرين السابقين.

(٥) هو بقية الحديث السالف ذكرُه.

(٦) مدارج السالكين (٢/ ٦٢٧).

(٧) المصدر السابق (٢/ ٦٣٧).

إياه، قال ﷺ: «**مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا أُعْطِيَهَا، وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ**»، وفي رواية: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ= بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ**»(١)، وعلىٰ هذا فقِسْ؛ فمَن صدق في العِلم= رُزِقَه.

ومن بركات العلم، وأسباب ذيوعه: صدق حامله؛ فالنفوس مجبولة علىٰ الطمأنينة إلىٰ الصدق وأهله.

ومعنىٰ: (**وَقُلْ صَادِقًا**): قل قولًا صادقًا، فـ: (**صَادِقًا**) هنا حال(٢).

◆ ◆ ◆

المطلب الخامس

سلامة الصدر

قال الشاطبي رحمه الله:

٨٠. وَعِشْ سَالِمًا صَدْرًا ... .

إبراهيم عليه السلام أدرك عِظَمَ هذه المنزلة في النجاة من الخزي الأعظم، فقال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء]، فمهما مُتِّع العبدُ بأنواع النِّعم، وصنوف الملاذِّ؛ فإنها لا تنفعه إن لم يتحَلَّ بهذه الخَصلة، وهذا ما فطن إليه الخليل عليه السلام حينما نفىٰ الانتفاع بحطام الدنيا، ويجلِّي لك هذا جيدًا قولُه تعالىٰ عن أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧﴾ [الحِجر]، فانظرْ كيف عدَّ سلامة الصدر من نعيم أهل الجنة؟!.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد، باب: استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالىٰ (ح ٤٩٠٦ - ٤٩٠٧).

(٢) انظر: الدرة الفريدة، لابن النجيبين (١/ ٢٠٤)، وإبراز المعاني (١/ ١٢٣).

وقد أثنىٰ الله ﷻ علىٰ مَن هذه صفتُه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر]، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا**»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: (فمَن أحب أن يقابل اللهُ إساءتَه بالإحسان= فلْيُقابلْ هو إساءةَ الناس إليه بالإحسان)(٢)، ويجب أن تتسع صدورُ المسلمين علىٰ كل الخَلق، وبالأخص: طلبة العلم فيما بينهم؛ فهذا هو اللائق بهم، فلا يَليق بعِلْية القوم التراشقُ والتناحُر، وهكذا كان الرَّعيل الأول رضي الله عنهم، فخلافهم لا تباغضَ فيه؛ لأنهم يريدون وجه الله، **قال طارق بن شهاب** رضي الله عنه: (كان بين خالد وسعد كلام؛ فذهب رجل يقع في خالد عند سعد، فقال: مَهْ؛ إن ما بيننا لم يبلغ دِينَنا)(٣)، **وقال يونس الصدفي** رحمه الله: (ما رأيتُ أعقلَ من الشافعي، ناظرتُه يومًا في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني؛ فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسىٰ، ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة؟!)(٤).

ومَن سلِم صدرُه= سلِم دينُه؛ فالصدر إن كان ممتلئًا بما لا يُرضي الله= غادرَتْ منه الحكمة، وانقشعَتْ عنه الأنوار، وكتاب الله أجلُّ مِن أن يكون في قلبٍ ممتلئٍ خبثًا، مشحونٍ بُغضًا، والله المستعان.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣١٠ - ح ١٩٧٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧/ ٦٩٥ - ح ٣٢٢٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٩).

(٣) انظر: صفة الصفوة (١/ ١٦٤).

(٤) انظر: السير (١٠/ ١٦).

المطلب السادس

الصبر

قال الشاطبي رحمه الله:

٨١. وَهذَا زَمَانُ الصَّبْرِ مَنْ لَكَ بِالَّتِي كَقَبْضٍ عَلَىٰ جَمْرٍ فَتَنْجُو مِنَ الْبَلَا

أمر الله ﷻ نبيَّه ﷺ بالصبر، وبيَّن له أنه لا قِوام له بتحقيقه إلا بمعونته سبحانه، فقال له: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، فالصبر مِنَّةٌ عظمىٰ، ونعمة كبرىٰ؛ فهو نور يستضيء به صاحبُه في الدنيا والآخرة، ولا تعثَّر مَن تعثَّر ووقع في حبائل الشبهات، وغرق في بحار الشهوات إلا بعد أن انفكَّتْ عنه العناية الإلهية، واللطف الربَّاني، وترحَّل عنه الصبر؛ فمشىٰ في دياجير الظلام، ومِن هنا وصَف الشارعُ الصبرَ بأنه: ضياء، قال ﷺ: «**وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»(١)؛ فلا يزال الصابرُ مستضيئًا، مهتديًا، مستمرًّا علىٰ الصواب(٢)، وقد جاء وصف الصلاة بأنها: (نور)، وجاء وصف الصبر بأنه: (ضياء)، وهو أبلغ؛ فالضياء أقوىٰ من النور، وقد قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥]؛ وذلك أن الصبر أوسع من الصلاة؛ لأن كل واحدة من الواجبات والمحظورات تحتاج إلىٰ الصبر، بل مناط جميع أمور الدِّين علىٰ الصبر، ولمَّا كانت الأعمال كلها لا بدَّ لها من الصبر، ولا يتم إلا به= كان ضياءً للمتصِف به، يقوده إلىٰ كل طاعة، وتذوده عن كل معصية، ولأن فيه حرارة ومرارة؛ فهو شاق علىٰ الإنسان؛ لِما يُلابسه من المشقة والمعاناة(٣).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء (ح ٥٣٣).

(٢) انظر: شرح النووي (٣/ ٩٧).

(٣) انظر: التنوير (٧/ ١٨١)، ومرعاة المفاتيح (٢/ ١١٦)، وشرح الأربعين النووية، لابن عثيمين (٢٤٨).

وأشار الناظم ﷺ هنا إلىٰ حديث: (**يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَىٰ دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَىٰ الجَمْرِ**)[١]؛ لأنه يفيض الشر، ويخفىٰ الخير، ويَقِلُّ أعوانُه، ويؤذَىٰ الباقي علىٰ الحق، ويكثر أهلُ البدع، ويُعَدُّ المعروفُ منكرًا، والمنكرُ معروفًا؛ فشبَّه الصابرَ علىٰ دينه كالقابض علىٰ الجمر مِن تشبيه المعقول بالمحسوس[٢]، ففيه: بيانٌ لشدة الحال، وغُرْبة أهل الدين والصلاح، والله المستعان[٣].

وقارِنْ هذا مع قوله:

٨٧. هُوَ المُجْتَبَىٰ يَغْدُو عَلَىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ ... قَرِيبًا غَرِيبًا مُسْتَمَالًا مُؤَمَّلَا

◆ ◆ ◆

المطلب السابع
الحرص على الأوقات

قال الشاطبي ﷺ:

٨٣. .... فَيَا ضَيْعَةَ الأَعْمَارِ تَمْشِي سَبَهْلَلَا

وهذا من أعظم ما يجب أن يُعنىٰ به كلُّ عاقل، فكيف بطالب العِلم؟! ومتىٰ ما اختلَّ هذا البابُ عندك؛ فكبِّرْ علىٰ نفسك أربعًا، فـ:

الْوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُنِيتَ بِحِفْظِهِ ... وَأَرَاهُ أَسْهَلَ مَا عَلَيْكَ يَضِيعُ[٤]

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن (ح ٢٢٦٠)، وصححه الألباني.

(٢) انظر: التنوير (١١/ ١٩٢).

(٣) وانظر: نونية ابن القيم، فصل: فيما أعد الله تعالىٰ من الإحسان للمتمسكين بكتابه وسنة رسوله ﷺ عند فساد الزمان (٢٨٩)؛ فقد ذكر أبياتًا في هذا الشأن.

(٤) البيت للوزير ابن هبيرة. انظر: الآداب الشرعية (٢/ ٣٦٥).

والمسألة مسألة توفيق من الله، فمَن أراد الله به الخيرَ= عمَر وقتَه به، ومن أُريد به غير ذلك= رأيتَه متخبِّطًا في أوقاته، يقضيها بما لا فائدة منه، وربما بما يعود عليه بالضرر، والله الموفق، فالأوقات أعمار، من فرَّط فيها إنما يفرِّط في عمره، فـ(الوقتَ الوقتَ للتحصيل؛ فكن حِلْفَ عمل، لا حِلْفَ بطالة وبطَر، وحِلْسَ مَعْمَل، لا حِلْسَ تَلَّةٍ وسمَر)[(١)].

والعاقل يغتنم وقتَه قبل أن يُحال بينه وبين ما يُعيقُه عن كسب الخير؛ ولذا كانت من وصايا الرسول ﷺ: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ**»[(٢)].

والحذرَ الحذرَ من الغفلة؛ فإنها قائد الضياع، ورُبَّان التسويف؛ ولذا لما أمر الله سبحانه باغتنام الوقت بذِكره؛ نهىٰ عن الغفلة؛ لأنها تَحول بين المرء وبين الخير، فقال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف]، ورُوي عن علي ﷺ أنه **قال**: (طول الأمل يُنسي الآخرةَ)[(٣)].

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: (إني لأَمْقُتُ الرجلَ فارغًا؛ لا في أمر الدنيا، ولا في أمر الآخرة)[(٤)].

---

(١) العبارة للشيخ بكر أبو زيد في كتابه النفيس: حلية طالب العلم (٢٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (ح ٢٩٤٧)، كتاب: الفتن، باب: في بقية من أحاديث الدجال، **ومعنىٰ**: (**خاصة أحدكم**)، أي: الموت، أو شواغل النفس، و(**أمر العامة**): القيامة، أو الفتن. انظر: الكاشف (١١/ ٢٤٤٨)، ومنة المنعم، للمباركفوري (٤/ ٣٨٦).

(٣) انظر: حلية الأولياء (١/ ٧٦).

(٤) أخرجه وكيع في الزهد (٦٥٢)، وأحمد في الزهد (١٣١).

وقال جعفر بن محمد بن ثابت البناني ﷺ: (ذهبت أُلَقِّنُ أبي وهو في الموت، فقلت: يا أبتِ، قل: لا إله إلا الله، فقال: يا بُنَي، خَلِّ عني؛ فإني في وردي السادس أو السابع!)[١].

وكان أبو بكر النهشلي ﷺ صالحًا، يَثِبُ للصلاة في مرضه ولا يقدِر، فيقال له[٢]، فيقول: (أُبادر طَيَّ الصحيفة!)[٣].

وسُئل عبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي ﷺ عن اتفاق كثرة السماع له، وسؤالاته لأبيه، **فقال**: (ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه)[٤].

ولا تُثْنِيَنَّك قسوةُ الظروف وشدةُ الحال فتَرْكَن إلىٰ السكون، بل سَلِ الله الإعانة، واجتهد في بلوغ الأرب، واللحوق بالرَّكب؛ فالذهب ينقَّىٰ من كل شائبة إذا أُدخِل الكِير!، و:

..... كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَىٰ الدَّرْبِ وَصَلْ[٥]

يوسف عليه السلام دعا إلىٰ توحيد الله وهو في السجن!.

والسرخسي ﷺ ألَّف كتابَه الضخمَ: «المبسوط» الواقعَ في (١٥) مجلدًا، وهو في السجن!، **قال في نهاية كتاب العبادات**: (هذا آخر شرح العبادات، بأوضح المعاني

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٢/ ٣٢٢).

(٢) أي: يراجَع في فعله هذا، ويُطلَب منه الراحة.

(٣) انظر: السير (٧/ ٣٣٣).

(٤) انظر: السير (١٣/ ٢٥١).

(٥) عجُز بيت لابن الوردي في لامِيَّته، البيت: (٢٤)، **وصدره**: (لا تَقُلْ ذَهَبَتْ أَمْجَادُهُ).

وأوجز العبارات، أملاه المحبوس عن الجُمَع والجماعات، مصلِّيًا علىٰ سيد السادات، محمدٍ المبعوث بالرسالات، وعلىٰ أهله من المؤمنين والمؤمنات)[١]، **وقال في نهاية كتاب الطلاق**: (هذا آخر شرح كتاب الطلاق بالمؤثرة من المعاني الدقاق، أملاه المحصور عن الانطلاق، المبتلىٰ بوَحشة الفِراق، مصليًا علىٰ صاحب البُراق، وآله وصحبه أهل الخير والسِّبَاق، صلاةً تتضاعف وتدوم إلىٰ يوم التلاق، كتبه العبد البريء من النفاق)[٢]، **وقال في آخر كتاب العتاق**: (انتهىٰ شرح كتاب العتاق، من مسائل الخلاف والوفاق، أملاه المستقبِل للمحن بالإعتاق، المحصور في طرف من الآفاق، حامدًا للمهيمن الرزاق، ومرتجيًا إلىٰ لقائه العزيز بالأشواق، ومصليًا علىٰ حبيبِ الخلَّاق، وعلىٰ آله وأصحابه خيرِ الصحب والرفاق)[٣].

وابن الجوزي ﵀ ختم القراءات العشر علىٰ ابن الباقلاني -وقد شُرِّد وغُرِّب وسُجِن-، وكانت سِنُّه نحوَ الثمانين!، **قال الذهبي** ﵀ **معلِّقًا**: (فانظر إلىٰ هذه الهمة العالية!)[٤].

وشيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ ختم القرآن وهو في السجن (٨٠) مرةً، فلما بلغ قولَه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر] مات!)[٥].

وابن القيم ﵀ ألَّف: «زاد المعاد» الواقع في (٦) مجلدات، وهو سِفر!، **قال في**

---

(١) (٤/ ١٩٢).

(٢) (٧/ ٥٩).

(٣) (٧/ ٢٤١).

(٤) السير (٢١/ ٣٧٧).

(٥) انظر: العقود الدرية (٤٤٣).

مقدمته: (وهذه كلمات يسيرة لا يستغني عن معرفتها مَن له أدنىٰ همَّة إلىٰ معرفة نبيه ﷺ وسيرته وهَدْيه، اقتضاها الخاطر المكدود علىٰ عُجَره وبُجَره، مع البضاعة المُزجاة التي لا تنفتح لها أبواب السُّدَد، ولا يتنافس فيها المتنافسون، مع تعليقها في حال السَّفر لا الإقامة، والقلبُ بكل وادٍ منه شُعبة، والهمة قد تفرقت شَذَر مَذَر، والكتاب مفقود، ومَن يفتح بابَ العلم؛ مذاكرتُه معدوم غير موجود...)[(١)].

وألَّف: «مفتاح دار السعادة» الواقع في (٣) مجلدات في سفر كذلك!، **فقال في مقدمته:** (وسميته: «مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة»؛ إذْ كان هذا من بعض النُّزُل والتُّحَف التي فتح الله بها عليَّ حين انقطاعي إليه عند بيته، وإلقائي نفسي ببابه مسكينًا ذليلًا، وتعرُّضي لنفحاته في بيته وحولَه بُكرةً وأصيلًا؛ فما خاب من أنزل به حوائجَه، وعلَّق به آمالَه، وأصبح ببابه مقيمًا، وبحِماه نزيلًا)[(٢)].

وكذلك كتابَه: «روضة المحبين ونزهة المشتاقين»، حيث **قال في مقدمته:** (والمرغوب إلىٰ مَن يقِف علىٰ هذا الكتاب أن يعذر صاحبَه؛ فإنه علَّقه في حال بُعدِه عن وطنه، وغَيبتِه عن كتبه)[(٣)].

ولله در القائل:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وَأَبْصَرْتَ حَاصِدًا نَدِمْتَ عَلَىٰ التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَذْرِ[(٤)]

وأسأل الله أن يعفو عنا ويُعيننا، ويستعملنا في طاعته.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٥٢).

(٢) (١/ ١٧٠).

(٣) (٢٣).

(٤) انظر: حفظ العمر، لابن الجوزي (٦٥).

المبحث الثالث

الأدب مع الغير

المطلب الأول

ثناؤه على المتقدمين

من أمارات إخلاص طالب العلم وصدقه: ثناؤه علىٰ الأوائل، والدعاء لهم، والتصريح بفضلهم وعلمهم، وهي مِن بركات العِلم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر]، والثناء والغِلُّ لا يجتمعان، **قال ابن عبد البر** رحمه الله: (يقال: إن من بركة العلم: أن تُضيفَ الشيء إلىٰ قائله)[(١)]، **وقال القرطبي** رحمه الله **في مقدمة «تفسيره»**: (وشرْطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلىٰ قائليها، والأحاديث إلىٰ مصنِّفيها، فإنه يقال: مِن بركة العلم أن يضاف القولُ إلىٰ قائله)[(٢)]، **وقال النووي** رحمه الله: (ومِن النصيحة: أن تُضاف الفائدةُ -التي تُستغرب- إلىٰ قائلها، فمَن فعل ذلك: بورك له في علمه وحاله...، ولم يزل أهلُ العلم والفضل علىٰ إضافة الفوائد إلىٰ قائلها، نسأل الله تعالىٰ التوفيقَ لذلك دائمًا)[(٣)].

وقد كانت هذه سِمةً في الإمام الشاطبي رحمه الله، فقد قال:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٥).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٨).

(٣) بستان العارفين (١٥).

٢٠. جَزَىٰ اللهُ بِالْخَيْرَاتِ عَنَّا أَئِمَّةً ... لَنَا نَقَلُوا الْقُرْآنَ عَذْبًا وَسَلْسَلَا

٢١. فَمِنْهُمْ بُدُورٌ سَبْعَةٌ قَدْ تَوَسَّطَتْ ... سَمَاءَ الْعُلَىٰ والْعَدْلِ زُهْرًا وَكُمَّلَا

٢٢. لَهَا شُهُبٌ عَنْهَا اسْتَنَارَتْ فَنَوَّرَتْ ... سَوَادَ الدُّجَىٰ حَتَّىٰ تَفَرَّقَ وَانْجَلَا

فانظر كيف دعا لهم، وأثنىٰ عليهم بعاطر القول، ثم أخذ يعدد القرَّاءَ برواتهم مثنيًا عليهم!.

كما أنه اعترف بفضلهم وسابقتهم، حيث بيَّن أن أصل منظومته: كتابُ «التيسير»، لأبي عمرو الداني رحمه الله، فقال رحمه الله:

٦٨. وَفِي يُسْرِهَا التَّيْسِيرُ رُمْتُ اخْتِصَارَهُ ... فَأَجْنَتْ بِعَوْنِ اللهِ مِنْهُ مُؤَمَّلَا

٦٩. وَأَلْفَافُهَا زَادَتْ بِنَشْرِ فَوَائِدٍ ... فَلَفَّتْ حَيَاءً وَجْهَهَا أَنْ تُفَضَّلَا

وتأملْ -أيضًا- كيف رفع قدرَ أبي عمرو، ودفع توهُّمَ تفضيله عليه لما ذكر أن قصيدته زادت علىٰ ما في كتابه «التيسير»، وأنها استَحْيَت استحياءَ التلميذ من المعلِّم، والمتأخر من المتقدم!.

فالأوائل لهم قدم السَّبق، وسابقة الفضل، جهودهم تُذكَر فتُشكَر، وتُذاع وتُنشر، ورحم الله الإمام الذهبي، **حيث قال** -لما طالَع «صحيحَ الإسماعيلي»، أحد كبار الشافعية-: (طالعتُه وعلَّقتُ منه، وابتهرْتُ بحفظ هذا الإمام، وجزمتُ بأن المتأخرين علىٰ إياسٍ من أن يلحقوا المتقدمين في الحِفظ والمعرفة!)[1]، **وقال ابن القيم** رحمه الله -لما عقَّب علىٰ كلام شيخ الإسلام الهروي في منزلة الرجاء-: (والله يشكر لشيخ الإسلام[2] سعيَه، ويعلي درجتَه، ويجزيه أفضلَ جزائه، ويجمع بيننا وبينه في

(١) انظر: تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٦).

(٢) يعني به: الهروي -صاحب منازل السائرين-.

محل كرامته؛ فلو وجد مريدُه سعةً وفسحةً في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لَمَا فعل، كيف وقد نفعه الله بكلامه، وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه، وهو أحد من كان علىٰ يديه فتحه يقظةً ومنامًا؟!)[١]، فتأملْ عظيمَ ما حوتْه هذه الأسطرُ من الثناء، والدعاء، والاعتذار علىٰ الاعتراض، والاعتراف بالاغتراف من علمه، فرحمهم الله برحمته الواسعة، **وهو القائل** ﷺ: (للسلف غَوْر ودقَّة فَهم لا يدركها كثير من المتأخرين)[٢].

فلا يليق إذنْ إهمالهم، فضلًا عن الحطِّ من قدرهم، أو التنقص منهم، **قال الطحاوي** ﷺ: (وعلماء السلف من السابقين ومَن بعدهم من التابعين -أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر- لا يُذكَرون إلا بالجَميل، ومَن ذَكَرهم بسوء= فهو علىٰ غير السبيل)[٣]، **وقال ابن عساكر** ﷺ مبينًا خطورة الوقيعة فيهم: (واعلم يا أخي -وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته- أن لحوم العلماء -رحمة الله عليهم- مسمومة، وعادة الله في هَتْك أستار منتقصيهم معلومة؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء= أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء= مرتع وخيم، والاختلاق علىٰ من اختاره الله منهم لنعش العلم= خُلق ذميم)[٤]، **وقال أيضًا**: (وكل من أطلق لسانه في العلماء بالثَّلْب= بلاه الله ﷻ قبل موته بموت القلب)[٥]، **وقال ابن المبارك** ﷺ: (من استخفَّ بالعلماء= ذهبَت آخرتُه)[٦]،

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٨٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٦٩).

(٣) العقيدة الطحاوية (٨٢).

(٤) تبيين كذب المفتري (٢٩).

(٥) المصدر السابق (٤٢٥).

(٦) السير (٤/ ٤٠٨).

وقال ابن الأذرعي ﵀: (الوقيعة في أهل العلم -ولا سيما أكابرهم- من كبائر الذنوب)[١]، **وقال الحسن بن سفيان الشيباني** ﵀ لمن أثقل عليه: (ما هذا؟! قد احتملْتُك مرتين وأنا ابن تسعين سنة، فاتق الله في المشايخ، فربما استُجيبت فيك دعوة؛ فقال له[٢] ابنُ خزيمة: مَهْ! لا تُؤْذِ الشيخَ)[٣].

وهي من علامات الشر، والعياذ بالله، **قال مالك بن دينار** ﵀: (كفىٰ بالمرء شرًّا أن لا يكون صالحًا، وهو يقع في الصالحين)[٤].

بل من أسباب سوء الخاتمة -ولو كان صاحبها إمامًا[٥]-، نسأل الله حسنَها، **قال ابن حجر** ﵀ في ترجمة القاضي الفقيه الشافعي: محمد بن عبد الله الزبيدي -وكان ممن اشتهر ذكرُه، وبعُد صيتُه-: (أخبرني الجمال المصري محمد بن أبي بكر -بزبيد- أنه شاهده عند وفاته، وقد اندلع لسانُه واسودَّ؛ فكانوا يرون أن ذلك بسبب كثرة وقيعته في الشيخ محيي الدين النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ)[٦].

◆ ◆ ◆

(١) الرد الوافر، لابن ناصر الدين الدمشقي (١٩٧).

(٢) أي: للسائل.

(٣) السير (١٤/ ١٥٩).

(٤) انظر: شعب الإيمان (١٠/ ٢٥٠ - رقم: ٦٣٥٨).

(٥) فلْيحذر طالب العلم من هذا؛ فإنه مزلق خطير، نسأل الله العافية والسلامة.

(٦) الدرر الكامنة، لابن حجر (٥/ ٢٣٤).

المطلب الثاني

الصحبة

ولا يخفىٰ ما لهذا الباب من كبير الأثر علىٰ سلوك الإنسان ومنهجه؛ ولذا جاءت نصوص الوحيين مبيِّنةً عظيمَ أمر الصُّحبة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]، وقال ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(١)، وأمر الشارع باعتبار ميزان الإيمان فيه، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٥]، وقال ﷺ: «**لا تَصْحَبْ إلا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ**»(٢)، وقال: «**وَلا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْمًا إلاَّ حُشِرَ مَعَهُمْ**»(٣)؛ فالعاقل لا يرضىٰ لمجالسته إلا أهلَ مجانسته(٤)، وهذا الأمر قد استقرَّ حتىٰ عند الأقدمين، قال الشاعر الجاهلي، طَرَفَة بن العَبْد البكري الوائلي:

عنِ المرْءِ لَا تَسألْ وسَلْ عن قَرينه فكُلُّ قَرينٍ بالمُقَارِنِ يَقْتَدي(٥)

قال ابن حبان رحمه الله: (العاقل لا يدنِّس عِرْضَه، ولا يُعوِّد نفسَه أسبابَ الشر

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: من يُؤمر أن يجالس (ح ٤٨٣٣)، والترمذي، كتاب: الزهد (ح ٢٣٧٨)، وحسَّنه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (١٧/ ٤٣٧ - ح ١١٣٣٧)، وأبو داود، كتاب: الأدب (ح ٤٨٣٢)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في صحبة المؤمن (ح ٢٣٩٥)، وحسَّنه الألباني.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٩٣ - ح ٦٤٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ٥٨٠) بلفظ مقارب.

(٤) قال الزمخشري: (لا ترض لمجالستك إلا أهلَ مجانستك). انظر: الكَلِم النوابغ (٣٧٢).

(٥) ديوان طَرَفَة بن العَبْد (٣٢).

بلزوم صحبة الأشرار، ولا يُغضي[1] عن صيانة عِرضه، ورياضة نفسه بصحبة الأخيار)[2].

فالصاحب ساحب، والطبع سَرَّاق، والنفوس تتأثر بالمخالطة، ومَن صاحب أهل المعالي علا شأنُه، وارتفع قدرُه، وكان في منأىً عن سَفساف الأمور وحضيضها، وإن مصاحبة الأخيار من أهل العلم والفضل مِنْحة من الله للعبد، كما أن الأخرىٰ عقوبة.

وقد ألْمَحَ الشاطبي ﷺ إلىٰ هذا الباب بقوله -عند ذكره رواة الإمام نافع-:

٢٦. وَقَالُونُ عِيْسَىٰ ثُمَّ عُثْمانُ وَرْشُهُمْ بِصُحْبَتِهِ الْمَجْدَ الرَّفِيعَ تَأَثَّلَا

فأخبر هنا أن قالونَ ووَرْشًا نالَا المجدَ الرفيعَ، وسادَا بصحبة الإمام نافع -رحم الله الجميع-.

وكذلك لما ذكر يحيىٰ اليزيديَّ ﷺ أخبر أنه نهل العلمَ الكثير حتىٰ ارتوىٰ منه؛ بسبب إفاضة أبي عمرو ﷺ له بالعلم، فقال ﷺ:

٣٠. أَفَاضَ عَلَىٰ يَحْيَىٰ الْيَزِيْدِيِّ سَيْبَهُ فَأَصْبَحَ بِالْعَذْبِ الْفُرَاتِ مُعَلَّلَا

◆ ◆ ◆

(١) أي: يتجاهل ويهمل.

(٢) روضة العقلاء (١٤١).

المطلب الثالث

الحرص على نفع الناس

وصدَّر ﷺ هذه الوصيةَ بأسلوب بديع، يُثير العزائمَ، ويشحذ الهِممَ؛ حيث أثنىٰ علىٰ من وجَّه إليه الخطابَ، ووصفَه بالحرِّ الذي لم يأسره هواه في سجن العبودية المُذِلَّة، وهذا أسلوب جميل يحرك النفوسَ الأبيَّةَ، إلىٰ الأخلاق العليَّة:

الحرص علىٰ نفع الناس وانتشالهم من أوحال الأضرار، فيدلهم علىٰ عيوبهم وأخطائهم؛ لإصلاحهم لا لفضيحتهم، لنفعهم لا لضرهم؛ فالمؤمن مرآة أخيه، قال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ**»(١)، **والمقصود**: أنه كالمرآة التي ينظر فيها وجهَه، ينبِّهه ويرشده إلىٰ ما يزينه عند مولاه تعالىٰ، وإلىٰ ما يزينه عند عباده، وهذا داخل في النصيحة(٢)، وشبَّه الإمامُ ﷺ ذلك بالكحل للعين؛ ينفعها ولا يضرها، ويزينها ولا يشينها، فقال:

٧٤. أَقُولُ لِحُرٍّ وَالْمُرُوءةُ مَرْؤُهَا ... لِإِخْوَتِهِ الْمِرْآةُ ذُو النُّورِ مِكْحَلَا

◆ ◆ ◆

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب: المسلم مرآة أخيه (٩٩ - ح ٢٣٨)، وأبو داود، كتاب: الأدب (٤٩١٨)، وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٩٩).

(٢) انظر: سبل السلام، للصنعاني (٤/ ٣١٩).

المطلب الرابع
الوئام والمحبة

قال الشاطبي رحمه الله:

٧٩. .... لَـوْلَا الْـوِئَـامُ وَرُوحُـهُ لَطَاحَ الأَنَامُ الْكُلُّ فِي الْخُلْفِ وَالْقِلَا

فهي من أسباب إبقاء المودات، ودَيمومة العَلاقات، والقبول عند الخلائق، وهذا الخُلق هو اللائق بالمسلم، وبخاصة: أهل العلم، وبالأخص: أهل القرآن، والوئام قُبَّة تجمع تحتها كلَّ خُلق نبيل، وعلىٰ رأس ذلك: الرحمة، وقد وصف الله خُلُقَ من أنزل عليه القرآنَ، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وفي الحديث: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحمنُ**»(١)، وهذا الحديث يسمىٰ عند العلماء: المسلسل بالأولية؛ لأن كل راوٍ يقول لمَن بعده: (وهو أول حديث سمعتُه منه)(٢)؛ وذلك ليبني تعليمَه الناسَ علىٰ الرحمة بهم، وفي القرآن نجد أن الله جمع بين الرحمة والعلم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر]، ونهىٰ الله تعالىٰ عن الغِلظة مع المحتاجين، وهو أمرٌ بالتلطف، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾ [الضحىٰ]، وروي

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في الرحمة (ح ٤٩٤١)، والترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة المسلمين (ح ١٩٢٤)، وصححه الألباني.

(٢) انظر: شرح ثلاثة الأصول، لصالح آل الشيخ (٦٣). والمقصود: أنه يخبر تلميذَه بأنه أول حديث سمعه من شيخه.

عن الحسن ﷺ أنه **قال**: (طالب العلم)[١]، وهذا يقتضي: التلطف معهم.

ولا يخفىٰ ما لوصيته هذه من أثر كبير في الاجتماع وعدم الفُرقة؛ ولذا قال ﷺ: «**وَلَا تَخْتَلِفُوا؛ فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ**»[٢]، وكذلك في اتقاء الشرور، وهذا أمر مستقرٌّ حتىٰ عند الأقدمين، قال الشاعر زُهير ابن أبي سُلمىٰ في معلَّقته:

وَمَنْ لَا يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ[٣]

وفي مشهور الحِكَم عند العرب: (لولا الوئام= هلك الأنام)[٤]، **فتبيَّن بهذا**: أن هذه الوصية تجلب الخير، وتدفع الشر، **قال ابن القيم** ﷺ: (فليس للقلب أنفعُ من معاملة الناس باللطف؛ فإن مُعامِله بذلك:

- إما أجنبيٌّ: فيكسب مودتَه ومحبتَه.
- وإما صاحبٌ وحبيبٌ: فتستديمُ صحبتَه ومودتَه.
- وإما عدوٌّ ومُبغِض: فتطفئ بلطفك جمرتَه، وتستكفي شرَّه، ويكون احتمالُك لِمَضَضِ لطفك به دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به)[٥].

◆ ◆ ◆

(١) انظر: تفسير البغوي (٤/ ٦٣٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: تسوية الصفوف وإقامتها (ح ٩٧١).

(٣) البيت: (٥٤).

(٤) انظر: أدب الدين والدنيا، للماوردي (٤٥٠)، ومجمع الأمثال، للنيسابوري (٢/ ١٧٦).

(٥) مدارج السالكين (٣/ ٣٤٤).

المطلب الخامس
في النصح للمسلمين

قال الشاطبي رحمه الله:

٩٠. وَقَدْ قِيلَ كُنْ كَالْكَلْبِ يُقْصِيهِ أَهْلُهُ وَمَا يَأْتَلِي فِي نُصْحِهِمْ مُتَبَذِّلَا

من مشهور الأمثال عند العرب: وفاء الكلب(١).

وأراد الناظم هنا: تحريكَ النفوسِ إلىٰ التحلي بالخصال الحميدة، وأنه إذا كان في أخس الحيوانات خصلة حميدة؛ فينبغي أن يُعمَل بها ولا تُهمَل(٢).

وقد صنَّف ابنُ المرزبان كتابًا في ذلك، وهو: «**فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبِس الثياب!**»، **ومما قال فيه**: (واعلم -أعزَّكَ الله(٣)- أن الكلب لِمن يقتنيه أشفقُ من الوالد علىٰ ولده، والأخ الشقيق علىٰ أخيه؛ وذلك أنَّه يَحرس ربَّه(٤)، ويحمي حريمَه شاهدًا وغائبًا، ونائمًا ويقظانًا، لا يقصِّرُ عن ذلك وإن جَفوه، ولا يخذُلهم وإن خذلوه، ورُوِيَ لنا أنَّ رجلًا قال لبعض الحكماء: أوصِني، قال: اِزهدْ في الدنيا، ولا تُنازِعْ فيها أهلَها، وانصحْ لله تعالىٰ كنصح الكلب لأهله؛ فإنهم يُجِيعونه

(١) انظر: كتاب الحيوان، للجاحظ (٢/ ٣١٧)، ونشوار المحاضرة، للتنوخي (٧/ ٢١٨ - ٢٢٥)، وتنبيه الغافلين، للسمرقندي (٣٥٥)، حيث نقل عن بعضهم: أن من خصال الغازي في الحروب: أن يكون فيه وفاء الكلب.

(٢) انظر: إبراز المعاني (١٣٠)، والعقد النضيد، للسمين الحلبي (١/ ٣٠٤).

(٣) وهذا من كمال أدبه، ورفيع ذوقه؛ أنْ قدَّم بين يدي كلامه بهذه الدعوة المتناسبة مع المذكور!.

(٤) أي: صاحبه.

ويضربونه، ويأبىٰ إلا أن يحوطهم نصحًا)[١]، وذكر جملةً من النقولات والروايات في هذا الباب.

والنصح للمسلمين من كمال الإيمان، وقد بيَّن ﷺ أن عمادَ الدين وقِوامَه مبني علىٰ النصح، ففي حديث تميمٍ الداري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قلنا: لمن؟ قال: «**للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**»[٢]، وكان ﷺ يشترط مَن يبايعُه مِن أصحابه بذلك، فعن جرير ﷺ قال: (بايعتُ رسولَ الله ﷺ علىٰ النصح لكل مسلم)[٣]، ولقد وفَّىٰ جرير ﷺ بهذا، فقد ذكر النووي -نقلًا عن الطبراني- ﷺ: أن جريرًا ﷺ أمر مولاه أن يشتري له فرسًا، فاشترىٰ له فرسًا بثلاثمائة درهم، وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن؛ فقال جرير لصاحب الفرس: فرسك خير من ثلاثمائة درهم؛ أتبيعه بأربعمائة درهم؟ قال: ذلك إليك يا أبا عبد الله، فقال: فرسك خير من ذلك؛ أتبيعه بخمسمائة درهم؟ ثم لم يزل يزيده مائةً فمائةً، وصاحبه يرضىٰ، وجرير يقول: فرسك خير، إلىٰ أن بلغ ثمانمائة درهم؛ فاشتراه بها، فقيل له في ذلك[٤]، فقال: (إني بايعتُ رسولَ الله ﷺ علىٰ النصح لكل مسلم)، والله أعلم[٥].

---

(١) (٣٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة (ح ١٩٤). وانظر: شرح النووي (٢/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، الأثر رقم: (١٩٨).

(٤) سُئل عن ذلك، وكأنه عُوتِب عليه ﷺ، ولا شك أن ما فعله ﷺ هو اللائق بمنزلته!، ثم هذا هو الطريق إلىٰ البركة؛ فقد قال ﷺ -كما في الصحيحين- عن المتبايعَين: (**فإنْ صدَقَا وبيَّنَا= بُورك لهما في بيعهما**).

(٥) انظر: شرح النووي (٢/ ٢٢٨).

وقال علي ﷺ: (لا تُعاملْ بالخديعة؛ فإنها خُلق اللئام، وامْحَضْ[١] أخاك النصيحةَ -حسنةً كانت أم قبيحةً-، وساعِدْه علىٰ كل حال، وزُلْ[٢] معه حيث زال)[٣].

وأصل النصح: الخلوص، وهو: إخلاص العمل من الغشِّ[٤]؛ فلا بد من إخلاص النية فيها، ومن ذلك:

- أن يكون همُّه نفعَ المنصوح.
- وأن يبذلها إليه سرًّا ما أمكنه ذلك، إما بالخَلوة به، وإما بكلام عام وهو حاضر -شريطةَ ألا يُفهَم أنه المَعنِيُّ-؛ لأن غايتَه مِن بَذْلها: التقويمُ والإصلاح، لا التشهير والإفصاح، وقد جُبِلت النفوسُ علىٰ حبِّ اللين، والنفور من الغلظة، وهذا هو منهج القرآن؛ وتأملْ في سورة التوبة، حيث كرَّرت: ﴿وَمِنْهُمْ﴾، دون تصريح، وهو المنهج النبوي أيضًا، تقول عائشة ﵂: (كان النبي ﷺ إذا بلَغه عن الرجل الشيءَ لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟)[٥]، **قال ابن حبان** ﵀: (ويجب أن يكون للعاقل نصيحةٌ مبذولةٌ للعامة، مكتومًا من العام والخاص -ما قَدِر عليه[٦]-)[٧].

---

(١) أي: أَخلِص.

(٢) أي: انتقِل.

(٣) انظر: روضة العقلاء (١٠٧ و٢٦٤).

(٤) انظر: معالم السنن، للخطابي (٣/ ٣٠٤)، وفتح القدير (٢/ ٥٥٥).

(٥) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في حسن العشرة (ح ٤٧٨٨)، وصححه الألباني.

(٦) أي: يبذلها لكل أحد، وتكون سرًّا قدر المستطاع.

(٧) روضة العقلاء (٢٦٥).

قال ابن حبان ﵀: (من وعظ أخاه علانيةً فقد شانه، ومن وعظه سرًّا فقد زانه)(١)، **وقال سفيان** ﵀: (قلت لِمِسْعَر: تحب أن يخبرك رجلٌ بعيوبك؟ قال: أمَّا أن يجيء إنسانٌ فيوبِّخني بها فلا(٢)، وأمَّا أن يجيء ناصحٌ فنَعَم)(٣).

- وأن يصبر علىٰ تَبِعاتها من الجفاء، والتُّهمة، والرد، **قال ابن حبان** ﵀: (النصيحة مُحاطةٌ بالتهمة)(٤).

ولْيعلمْ أن المنصوح ليس أَولىٰ بالنصيحة منه؛ فإن دَبَّ ذلك إليه= انقطعت بركةُ نُصْحِه أو ضَعُف تأثيرها -بحسب ما دخله-، **قال ابن حبان** ﵀: (وليس الناصح بأولىٰ بالنصيحة من المنصوح له)(٥).

ويجب علىٰ المنصوح: القبول؛ فإن أبىٰ= كان ذلك جنايةً منه علىٰ نفسه ودينه وخُلُقه، وهو دليل علىٰ ضعفه، وعندها: يكون ضِيقُ الإدراك، وزلَّةُ القدم، وعدمُ السداد، **قال ابن حبان** ﵀: (وأكثر ما يُوجَد ترك قبول النصيحة: من المُعجَب برأيه)(٦).

والنصح أمارة علىٰ الصدق، وهو من مُسقطات العتب واللوم عن المتخلف عن الواجبات؛ لأن الناصح لا يتخلف إلا بعذر، ولا يَخْلُفُ إلا بخير -فباطنه كظاهره-، قال تعالىٰ في حق المتخلفين عن غزوة تبوك: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى

(١) المصدر السابق (٢٦٧).

(٢) وهذا منه نفي للأسلوب، لا للقبول؛ فتأملْ.

(٣) انظر: روضة العقلاء (٢٦٧)، وذكر آثارًا جميلةً في تناصح السلف فيما بينهم، رحمهم الله تعالىٰ.

(٤) المصدر السابق (٢٦٦).

(٥) المصدر الأسبق (٢٦٥).

(٦) المصدر الأسبق (٢٦٧).

ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ [التوبة]، **قال ابن الجوزي** رحمه الله: (والحرج: الضِّيق في القعود عن الغزو، بشرط النصح لله ولرسوله ﷺ...، وإنما شُرط النصح؛ لأن مَن تخلَّف بقصد السعي بالفساد فهو مذموم، ومِن النصح لله: حث المسلمين علىٰ الجهاد، والسعي في إصلاح ذات بينهم، وسائر ما يعود باستقامة الدين)[1]، **وقال أبو حيان** رحمه الله: (وشرَط في انتفاء الحرج: النصحَ لله ورسوله، وهو أن تكون نياتُهم وأقوالُهم سرًّا وجهرًا خالصة لله تعالىٰ من الغش، ساعيةً في إيصال الخير للمؤمنين، داعيةً لهم بالنصر والتمكين)[2].

(١) زاد المسير (٢/ ٢٨٨).

(٢) البحر المحيط (١١/ ٣٩٢).

المبحث الرابع

المحاذير

المطلب الأول

الغِيبة

قال الشاطبي رحمه الله:

٥٤. ... ... وَعَـنْ غِيبَةٍ فَغِبْ تُحَضَّرْ حِظَارَ الْقُدْسِ أَنْقَىٰ مُغَسَّلَا

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»(١).

والأصل في المسلم: الحُرمة، قال ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»(٢)، ولا يخفىٰ ما لخطورة هذا الداء علىٰ صاحبه، بل علىٰ الناس كلهم؛ مِن إيغار الصدور، وإيقاد الضغائن، في حين أن المطلوب من طالب العلم: معالجة ذلك!.

ومَن أشغل نفسَه بالعلم والطاعة= لم يلتفتْ إلىٰ الخَلق، وهذه علامةُ توفيقٍ من الله؛ فإن من علامات الخِذلان: أن يُشغَل المرءُ بغيره، وفي الحديث: «مِنْ

(١) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الغيبة (ح ٢٥٨٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وماله وعرضه (ح ٦٤٨٧).

حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ»[١]، **قال معروف** رحمه الله: (كلام العبد فيما لا يعنيه= خذلان من الله عز وجل)[٢]، **قال الحسن** رحمه الله: (من علامة إعراض الله عن العبد: أن يجعل شغله فيما لا يَعنيه)[٣]، وإذا اشتغلَتِ النفسُ بما لا يَعْنِيها= وقعَتْ فيما يُعَنِّيها.

ومما ينبغي أن يُفطَن له في هذا المقام: الحذر من تلبيس الشيطان وحبائله؛ فيزيِّن للمتكلم الوقيعةَ في الخَلق بحامل الغَيرة علىٰ الدين، وتقويم الخطأ؛ محتجًّا بصنيع الجهابذة الأتقياء في أبواب الجرح والتعديل، وشتان بين الفريقين، وبين النِّيَّتَين!! فأولئك تكلموا دِيانةً وصيانةً لأحاديث رسول الله ﷺ؛ متمنِّين أنْ لو كفاهم غيرُهم هذا الحِمْلَ الثقيل، وهذا قد تكلم تشفِّيًا وانتقامًا؛ فتجده يرتع في أودية الغِيبة الوخيمة، ويدنِّس قلبَه بها، **وعندها:** لا يجد طعمًا في طاعته، ولا بركةً في علمه، وقد مرَّ في مطلب: (ثناؤه علىٰ المتقدمين)[٤] قصة القاضي الفقيه الذي خُتِم له بسوء، وكانوا يرونه بسبب الوقيعة في الحافظ النووي رحمه الله، والله عز وجل وحده العالم بالنوايا، المطلع علىٰ الخفايا، نسأله العافية والسلامة.

قال أبو شامة رحمه الله: (وإنما اعتنىٰ بذكر الغِيبة مِن بين الأخلاق المذمومة؛ لغلَبتها علىٰ أهل العلم، ومنه قيل: الغِيبة فاكهة القرَّاء، وقال بِشْر بن الحارث: هلك القرَّاء في هاتين الخصلتين: الغِيبة والعُجب)[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد (ح ٢٣١٧)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (ح ٣٩٧٦)، وصححه الألباني.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٣٥٦).

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) (٣٧).

(٥) إبراز المعاني (١/ ١٢٤).

المطلب الثاني
الذنوب والمعاصي

قال الشاطبي رحمه الله:

٨٢. وَلَوْ أَنَّ عَيْنًا سَاعَدَتْ لتَوَكَّفَتْ سَحَائِبُهَا بِالدَّمْعِ دِيَمًا وَهُطَّلَا

٨٣. وَلَكِنَّهَا عَنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ قَحْطُهَا .....

اعلم أن أشد أنواع العقوبات التي يعاقَب بها العبد: الصرف عن دين الله تعالىٰ، والله ﷻ لا يظلم أحدًا، فمَن أعرض عن الله= أعرض الله عنه، ولا هلك مَن هلك إلا عن إعراض منه وصدود، وقد ذكر الله طرفًا من ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾ [التوبة]، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام].

وإذا أراد الله توفيقك لطاعته= هيَّأ لك الأسباب، وذلَّل لك الصعاب، وحبَّبها إليك، ويسَّرها عليك، وإذا هِنْتَ عليه= جعلك ترتع في أوحال المعاصي، ثم لا يبالي بك في أي وادٍ هلكْتَ، وقد امتن الله علىٰ المؤمنين بهذا، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾ [التوبة]، وقال: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨]، **قال الحسن** رحمه الله: (هانوا عليه فعصوه، ولو عَزُّوا عليه لَعَصمهم)(١)،

(١) انظر: الداء والدواء، لابن القيم (١٤٤).

وقال ابن القيم رحمه الله: (ولا يزال العبدُ يعاني الطاعة، ويألفها، ويحبها، ويؤْثِرها؛ حتىٰ يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكةَ تؤزُّه إليها أَزًّا، وتحرِّضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي، ويحبُّها، ويؤثرها؛ حتَّىٰ يرسل الله عليه الشياطين فتؤزُّه إليها أَزًّا)[1].

ومِن عظيم نِعم الله علىٰ العبد: أن يرزقه رقَّةَ القلب بذكره؛ فتتأثر لذلك الجوارح، وتذعن لخالقها، وتستجيب له، ويكون حاله كما قال الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٢٣﴾ [الزمر]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال]، وقد نعت اللهُ أهلَ العلم بالخشوع والبكاء من خشيته، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة]، تأمل كيف ذكر سبحانه أن من صفاتهم: السماعَ والمعرفةَ، وكيف أورث ذلك لهم البكاءَ من خشيته ﷻ!، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا ١٠٩﴾ [الإسراء]، **قال عبد الأعلىٰ التَّيْميُّ** رحمه الله: (من أُوتيَ من العلم ما لم يُبْكِه= لَخَليقٌ أن لا يكون أُوتيَ علمًا ينفعُه؛ لأن الله نعت العلماءَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٧])[2]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، ولقد نال رسولُ الله ﷺ في ذلك القدحَ المُعَلَّىٰ، وبلغ فيه ذروة الذُّرىٰ، بلا ريْب ولا امترا؛ فقد قال عن نفسه الكريمة: «**أَمَا واللهِ، إِنِّي لأَتْقَاكُمْ للهِ، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ**»[3]، وفي حديث

---

(١) الداء والدواء (١٤٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٢٢).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الصيام، باب: بيان أن القُبلة في الصوم ليست محرمة علىٰ من لم تحرك شهوته (ح ٢٥٨٣).

ابن مسعود ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: «**اِقْرَأْ عَلَيَّ**» قلت: آقرأُ عليك وعليك أُنزِل؟ قال: «**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فقرأتُ عليه سورة النساء، حتىٰ بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، قال: (**أَمْسِكْ**)؛ فإذا عيناه تذرفان(١).

والمقصود: أن البكاء منزلة رفيعة، ومرتبة شامخة، لا يُوَفَّق لنيلها إلا أفرادٌ أراد الله كرامتَهم، **ومن أكبر أسباب الظفر بها:** تعظيم الله في القلب، وتنزيه القلب عن أدران المعاصي؛ فعندها تترادف آلاء الله علىٰ ذلك القلب، ويكون محفوفًا بالخير، ومحفوظًا من الشر، **سُئل أبو سليمان الداراني** رحمه الله: (ما أقرب ما يُتقرب به إلىٰ الله ﷻ؟ فبكىٰ، ثم قال: مثلي يُسأل عن هذا؟! أقرب ما يُتقرب به إليه: أن يطَّلع علىٰ قلبك، وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو!)(٢)، **قال ابن رجب** رحمه الله: (القلب إذا قَلَّتْ خطاياه= أسرعَتْ دمعتُه)(٣).

فمتىٰ ما فارق العبدُ هذين الأصلين= قسا قلبُه، وجفَّتْ عيناه من دموع الخشية، وقد قلتُ في هذا -وأسأل الله مغفرتَه وفضلَه-:

وَالْقَحْطُ فِي تِلْكَ الْعُيُونِ فَسِرُّهُ الْـ ـقَـلْـبُ الْـقَـسِـيُّ نَـتَـائِـجُ الْـعِـصْـيَـانِ

وقد تقرَّر أن العلمَ أعظمُ النِّعم، ومن المعلوم: أن المعاصي تُزيل النِّعَمَ؛ فلا قرار للعلم في قلب العاصي -والله يتوب علىٰ من تاب، ويُرجع فضلَه وهو الكريم

---

(١) أخرجه البخاري، باب: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ (٣/ ٤٤٨ - ح ٤٥٨٢).

(٢) انظر: روضة المحبين، لابن القيم (٥٩٣)، وانظر إلىٰ تواضع هذا الإمام رحمه الله؛ حيث استعظم أن يُسأل عن مثل هذا!!.

(٣) مجموع رسائل ابن رجب (١/ ٢٦٢).

الوهاب-؛ فالعلم نور، قال الشافعي:

شَكَوْتُ إِلَىٰ وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَىٰ تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ ... وَفَضْلُ اللهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي[1]

وقال ابن القيم ﷺ: (العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تُطفئُ ذلك النور)[2]، **وقال ابن رجب** ﷺ: (فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يُقذَف في القلب)[3]، **وقال** ﷺ: (فمتىٰ كان العلمُ نافعًا وَوَقَرَ في القلب= فقد خشع القلبُ لله، وانكسر له، وذَلَّ هيبةً وإجلالًا، وخشيةً ومحبةً وتعظيمًا)[4]، **وكان الإمام أحمد يقول عن معروف الكَرْخي** ﷺ: (معه أصل العلم: خشيةُ الله)[5]، وقد أدرك هذا: الشِّرْبُ الأولُ ﷺ، وتعاهدوا علىٰ التواصي به فيما بينهم، رأىٰ مالكٌ الشافعيَّ ﷺ، وأعجبه ما رأىٰ من وفور فطنته، وتوقُّد ذكائه، وكمال فهمه؛ **فقال له**: (إني أرىٰ الله قد ألقىٰ علىٰ قلبك نورًا، فلا تُطفئْه بظلمة المعصية)[6].

(١) انظر: الداء والدواء (١٣٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) بيان فضل علم السلف علىٰ الخلف (٦٥).

(٤) المصدر السابق (٧٨).

(٥) المصدر السابق (٨٤).

(٦) انظر: الداء والدواء (١٣٢).

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وبعد:

فأحمد الله تعالىٰ أن يسَّر لي الإتمام، وأسأله الفضلَ والإنعام، وإن أهم ما خرجتُ به من هذا البحث ما يلي:

١. وجوب الاعتناء بكتاب الله ﷻ.

٢. غزارة علم الإمام الشاطبي ﷺ، وهذا شأن الفتح إذا جاء من الله.

٣. عظيم مكانة هذه القصيدة؛ حيث جمعتْ بين العلم والنصح، مع ما حوتْه من تنوُّعٍ في الأسلوب، ولا يخفىٰ ما في هذا من التشويق ودفع الملالة والسآمة.

٤. علوُّ منزلة السلف، وعظيم ما كانوا عليه في سَيرهم إلىٰ الله ﷻ.

٥. ضرورة الاهتمام بالمقاصد والنيات، والسلوكيات والأخلاقيات؛ فما قيمة العلم بدون ذلك؟!.

والحمد لله رب العالمين

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين

فهرس المصادر والمراجع

١. «**إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع للإمام الشاطبي**»، أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، تحقيق: جمال الدين محمد شرف، ط: الأولىٰ، دار الصحابة للتراث بطنطا، ١٤٢٩هـ.

٢. «**الإتقان في علوم القرآن**»، السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ١٤٢٦هـ.

٣. «**أخلاق أهل القرآن**»، الآجُرِّي، أبو بكر محمد بن الحسين، حققه وخرج أحاديثه: محمد عمرو عبد اللطيف، بإشراف المكتب السلفي لتحقيق التراث، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الثالثة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٤. «**الآداب الشرعية والمنح المرعية**»، المقدسي، أبو عبد الله محمد بن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيَّام، مؤسسة الرسالة، ط: الرابعة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٥. «**أدب الدين والدنيا**»، الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، اعتنىٰ به: اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج، ط: الأولىٰ، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

٦. «**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**»، الشنقيطي، محمد الأمين، دار عالم الفوائد، ط: الأولىٰ، ١٤٢٦هـ.

٧. «**إكمال المعلم بفوائد مسلم**»، اليحصبي البُستي، أبو الفضل، القاضي عياض بن موسىٰ، تحقيق: د. يحيىٰ إسماعِيل، دار الوفاء – مصر، ط: الأولىٰ، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٨. «**الإمام أبو القاسم الشاطبي؛ دراسة عن قصيدته: حرز الأماني في القراءات، وإشعاعها العلمي، وتعريف بشروحها التي زادت علىٰ مائة شرح**»، د. عبد الهادي عبد الله حميتو، مكتبة أضواء السلف، ط: الأولىٰ، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

٩. «**أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)**»، الشيرازي البيضاوي، أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: الأولىٰ، ١٤١٨هـ.

١٠. «**البحر المحيط**»، الغرناطي الأندلسي، أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي، تحقيق: مجموعة دارسين، الناشر: دار الرسالة العلمية، ط: الأولىٰ، ١٤٣٦هـ.

١١. «**بستان العارفين**»، محيي الدين النووي، أبو زكريا يحيىٰ بن شرف، دار الريان للتراث.

١٢. «**بيان المعاني**»، العاني، عبد القادر بن ملا حويش آل غازي، مطبعة الترقي – دمشق، ط: الأولىٰ، ١٣٨٢هـ – ١٩٦٥م.

١٣. «**بيان فضل علم السلف علىٰ علم الخلف**»، زين الدين ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد، تحقيق: أحمد فتحي البكيري، دار الأوراق الثقافية، ط: الأولىٰ، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م.

١٤. «**تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلىٰ الأشعري**»، ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٤هـ.

١٥. «**تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة**»، البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد، تحقيق: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، ط: الأولىٰ، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

١٦. «**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**»، المباركفوري، أبو العُلا محمد بن عبد الرحمن، اعتنىٰ به: يوسف الحاج أحمد، دار الفيحاء، دار السلام، ط: الأولىٰ، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

١٧. «**تنبيه الغافلين**»، السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد الحنفي، خرَّج أحاديثَه: أحمد شعبان أحمد، مكتبة الصفا، ط: الأولىٰ، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١٨. «**التنوير شرح الجامع الصغير**»، الأمير الصنعاني، محمد بن إسماعيل، تحقيق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، دار السلام – الرياض، ط: الأولىٰ، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

١٩. «**التوضيح لشرح الجامع الصحيح**»، ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق

التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا، ط: الأولىٰ، ١٤٢٩هـ.

٢٠. «**تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن (تفسير السعدي)**»، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، اعتنىٰ به: سعد الصميل، دار ابن الجوزي تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللُّويحق، ط: الأولىٰ، مؤسسة الرِّسالة، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٢١. «**التيسير بشرح الجامع الصغير**»، المناوي، زين الدين محمد بن علي بن زين العابدين، مكتبة الإمام الشافعي – الرياض، ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٢٢. «**جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**»، الطبري، محمد بن جرير، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، ط: الأولىٰ، ١٤٢٤هـ.

٢٣. «**جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكَلِم**»، زين الدين ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد، تحقيق: عبده علي كوشك، دار البشائر، ط: الأولىٰ، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.

٢٤. «**الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)**»، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، تحقيق: د. ماهر ياسين الفحل، دار ابن الجوزي، ط: الأولىٰ، ١٤٤٠هـ.

٢٥. «**جامع بيان العلم وفضله**»، النمَري، أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، ط: السابعة، ١٤٢٧هـ.

٢٦. «**الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**»، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الرسالة، ط: الأولىٰ، ١٤٣٣هـ.

٢٧. «**الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**»، الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، تحقيق: طارق بن عبد الواحد، دار ابن الجوزي، ط: الأولىٰ، ١٤٣٣هـ.

٢٨. «**الجامع لشعب الإيمان**»، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، أشرف علىٰ تحقيقه: مختار أحمد الندوي، إصدار: إدارة الشؤون الإسلامية بدولة قطر، ١٤٢٩هـ.

٢٩. «**حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح**»، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي

بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، ط: الثالثة، ١٤٣٧هـ.

٣٠. «**الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه**»، العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن مهران، تحقيق: د. مروان قباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣١. «**حفظ العمر**»، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، ودار الصديق، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٣٢. «**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**»، الأصبهاني، أبو نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٣٣. «**حلية طالب العلم**» (ضمن مجموعة)، أبو زيد، بكر بن عبد الله، دار العاصمة، ط: الأولى، ١٤١٦هـ.

٣٤. «**الحيوان**»، الجاحظ الليثي، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الثانية، ١٤٢٤هـ.

٣٥. «**خَلْق أفعال العباد**»، البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، المحقق: د. عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار المعارف السعودية - الرياض.

٣٦. «**الداء والدواء**»، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ط: الثانية، ١٤٣٦هـ.

٣٧. «**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**»، العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن حجر، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - الهند، ط: الثانية، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.

٣٨. «**الدرة الفريدة في شرح القصيدة**»، الهمذاني، ابن النجيبين، أبو يوسف، حسين بن أبي العز، تحقيق: د. جمال محمد طلبة السيد، مكتبة المعارف، ط: الأولى، ١٤٣٣هـ.

٣٩. «**ديوان أبي إسحاق الإلبيري**»، التُّجيبي الإِلبِيري، أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد،

تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة – دمشق، ط: الثانية، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٤٠. «**ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي**»، تحقيق: د. محمد بن عبد الرحمن الربيع، مكتبة المعارف – الرياض، ط: الأولىٰ، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٢م.

٤١. «**ديوان طَرَفَة بن العَبْد**»، البكري الوائلي، أبو عمرو طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط: الثالثة، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

٤٢. «**ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ (شرح سنن النسائي)**»، الإتيوبي، علي بن آدم بن موسىٰ، دار آل بروم، ودار ابن الجوزي، ط: الثالثة، ١٤٣٢هـ.

٤٣. «**الرد الوافر**»، الدمشقي، الشهير بابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ط: الأولىٰ، ١٣٩٣م.

٤٤. «**الرسالة التبوكية**» (ضمن مجموع)، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، ط: الأولىٰ، ١٤٢٥هـ.

٤٥. «**روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**»، البُستي، أبو حاتم محمد بن حبان، تحقيق: طارق بن عبد الواحد بن علي، دار ابن الجوزي، ط: الأولىٰ، ١٤٣٣هـ.

٤٦. «**روضة المحبين ونزهة المشتاقين**»، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، ط: الثانية، ١٤٣٦هـ.

٤٧. «**زاد المسير في علم التفسير**»، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤٣١هـ.

٤٨. «**زاد المعاد في هدي خير العباد**»، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ط: الأولىٰ، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.

٤٩. «**الزهد**»، الشيباني، أحمد بن حنبل، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الأولىٰ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

٥٠. «**الزهد**»، وكيع بن الجراح، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار – المدينة المنورة، ط: الأولىٰ، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٥١. «**سبل السلام شرح بلوغ المرام**»، الأمير الصنعاني، محمد بن إسماعيل، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط: الرابعة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٥٢. «**سلسلة الأحاديث الصحيحة**»، الألباني، محمد ناصر الدين، ط: الأولىٰ، دار المعارف – الرياض، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٥٣. «**سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**»، الألباني، محمد ناصر الدين، ط: الأولىٰ، دار المعارف – الرياض، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٥٤. «**سنن ابن ماجه**»، القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد، حكم علىٰ أحاديثه: الإمام الألباني، اعتنىٰ به: مشهور حسن سلمان، الناشر: مكتبة المعارف، ط: الأولىٰ.

٥٥. «**سنن أبي داود**»، الأزدي السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، ط: الأولىٰ، دار الحديث بحمص، سورية، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

٥٦. «**سنن الترمذي**»، الترمذي، أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة بن موسىٰ بن الضحاك، حكم علىٰ أحاديثه: الإمام الألباني، اعتنىٰ به: مشهور حسن سلمان، الناشر: مكتبة المعارف، ط: الأولىٰ.

٥٧. «**سير أعلام النبلاء**»، الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: الحادية عشرة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٥٨. «**شرح الأربعين النووية**»، العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، دار الثريا، ط: الثالثة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٥٩. «**شرح ثلاثة الأصول**» (ضمن مجموع)، آل الشيخ، صالح بن عبد العزيز، دار الإمام البخاري، الدوحة – قطر، ط: الأولىٰ، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

٦٠. «**شرح رياض الصالحين**»، العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، دار الوطن للنشر –

الرياض، ط: ١٤٢٦هـ.

٦١. «**شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتَّعليل**»، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق: زاهر سالم بلفقيه، ط: الأولىٰ، دار عالم الفوائد، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

٦٢. «**صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**»، البُستي، أبو حاتم محمد بن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط: الثانية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٦٣. «**صحيح الجامع الصغير وزياداته**»، الألباني، محمد ناصر الدين، أشرف علىٰ طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٦٤. «**صحيح مسلم بشرح النووي**»، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة - بيروت، ط: الثانية عشر، ١٤٢٧هـ.

٦٥. «**صفة الصفوة**»، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، ضبطه: عبد الرحمن اللادقي، حياة شيحا اللادقي، دار المعرفة، ط: الثالثة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٦٦. «**صيد الخاطر**»، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، تحقيق: عامر علي ياسين، دار ابن خزيمة، الرياض، ط: الثانية، ١٤١٩هـ.

٦٧. «**طبقات الحنابلة**»، ابن أبي يعلىٰ، أبو الحسين محمد بن محمد، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت.

٦٨. «**طريق الهجرتين وباب السعادتين**»، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ط: الثانية، ١٤٣٦هـ.

٦٩. «**عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**»، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق: إسماعيل غازي مرحبا، دار عالم الفوائد، ط: الثانية، ١٤٣٦هـ.

٧٠. «**العقد النضيد في شرح القصيد**»، السمين الحلبي، أبو العباس، أحمد بن يوسف، تحقيق: د. أيمن رشدي سويد، دار نور المكتبات للنشر والتوزيع، ط: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٧١. «**العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**»، المقدسي، محمد بن أحمد بن عبد الهادي، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، ط: الثانية، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٨م.

٧٢. «**العقيدة الطحاوية**»، الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك، شرح وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ط: الثانية، ١٤١٤هـ.

٧٣. «**العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**»، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، الناشر: إدارة العلوم الأثرية - فيصل آباد - باكستان، ط: الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٧٤. «**عنوان الحِكَم**»، البستي، أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط: الأولىٰ، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٧٥. «**غاية النهاية في طبقات القراء**»، الدمشقي، محمد بن محمد بن محمد بن علي بن الجزري، تحقيق: جمال الدين شرف، و: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة، ط: الأولىٰ ١٤٢٩هـ.

٧٦. «**فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير**»، الشوكاني، محمد بن علي، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء - المنصورة، دار ابن حزم - بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٧٧. «**فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب**»، ابن المرزبان، أبو بكر محمد بن خلف، تحقيق: ركس سميث، ومحمد عبد الحليم، الناشر: الجمل، ط: الأولىٰ، ٢٠٠٣م.

٧٨. «**فيض القدير شرح الجامع الصغير**»، المناوي، زين الدين محمد بن علي بن زين العابدين، الناشر: المكتبة التجارية الكبرىٰ - مصر، ط: الأولىٰ.

٧٩. «**قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي**»، جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، إعداد: ناصر بن محمد بن حامد الغريبي، إشراف: أ.د. سعدي الهاشمي، رسالة الدكتوراة - جامعة أم القرىٰ، مكة المكرمة - كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، ١٤٢٤هـ.

٨٠. «**الكاشف عن حقائق السنن (شرح الطِّيبي علىٰ مشكاة المصابيح)**»، الطِّيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز - مكة المكرمة - الرياض، ط: الأولىٰ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٨١. «**الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (نونية ابن القيم)**»، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق وضبط: علي حسن عبد الحميد الأثري، دار ابن الجوزي، ط: الثانية، ١٤٣١هـ.

٨٢. «**الكبائر**»، الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز، تحقيق: مشهور حسن سلمان، مكتبة الفرقان، ط: الثانية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٨٣. «**الكَلِم النوابغ**» (مع شرحه: النعم السوابغ)، الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، تحقيق: د. حمزة البكري، دار اللباب، ط: الأولىٰ، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.

٨٤. «**لامية ابن الوردي**» (مع شرحها: فتح الرحيم الرحمن)، البكري، أبو حفص عمر بن المظفر ابن أبي الفوارس بن أبي بكر الصديق ﷺ، عُني به: بُو جمعة عبد القادر مكري، دار المنهاج، لبنان - بيروت، ط: الثانية، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٨٥. «**لفتة الكبد إلىٰ نصيحة الولد**»، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة الإمام البخاري، ط: الأولىٰ، ١٤١٢هـ.

٨٦. «**متن الشاطبية**»، المسمىٰ: «حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع»، الشاطبي الرعيني الأندلسي، القاسم بن فيره بن خلف، ضبطه وصححه وراجعه: محمد تميم الزعبي، ط: الرابعة، مكتبة دار الهدىٰ بالمدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

٨٧. «**مجمع الأمثال**»، الميداني النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٨٨. «**مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي**»، زين الدين ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد، تحقيق: أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.

٨٩. «**محاسن التأويل**»، الحلاق القاسمي، جمال الدين محمد بن محمد سعيد بن قاسم،

تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولىٰ – ١٤١٨هـ.

٩٠. «**مدارج السالكين في منازل السائرين**»، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ط: الأولىٰ، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

٩١. «**مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**»، المباركفوري، أبو الحسن عبيد الله بن محمد، تحقيق: محمد سليمان محمد أمين، مدار القبس، ط: الأولىٰ، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م.

٩٢. «**مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**»، الهروي القاري، أبو الحسن نور الدين علي بن سلطان محمد الملا، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

٩٣. «**مسند الإمام أحمد بن حنبل**»، الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، المحقق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث – القاهرة، ط: الأولىٰ، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

٩٤. «**المصنَّف في الأحاديث والآثار**»، العبسي، أبو بكر ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي، تحقيق: أ.د. ناصر بن سعد الشثري، دار كنوز إشبيليا، ط: الأولىٰ، ١٤٣٦هـ.

٩٥. «**مطالع الأنوار علىٰ صحاح الآثار**»، الوهراني، أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن قرقول، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – دولة قطر، ط: الأولىٰ، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

٩٦. «**معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)**»، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة بالرياض، ط: الأولىٰ، الإصدار الثاني، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٩٧. «**معالم السنن (شرح سنن أبي داود)**»، الخطابي، أبو سليمان حَمْد بن محمد، تحقيق: سعد ابن نجدت عمر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.

٩٨. «**المعجم الأوسط**»، اللخمي الشامي، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة.

٩٩. «**مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة**»، شمس الدِّين ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، تحقيق: عامر علي ياسين، دار ابن خزيمة، ط: الأولىٰ، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

١٠٠. «**مِنَّة المُنعم في شرح صحيح مسلم**»، المباركفوري، صفي الرحمن، دار السلام - الرياض، ط: الأولىٰ، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٠١. «**المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية**»، الحكَمي، حافظ بن أحمد بن علي، ط: الأولىٰ، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

١٠٢. «**المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**»، محيي الدين النووي، أبو زكريا يحيىٰ بن شرف، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة - بيروت، ط: الثانية عشر، ١٤٢٧هـ.

١٠٣. «**نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**»، التنوخي البصري، أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم، ١٣٩١هـ.

مجلة تدبر

فهرس الموضوعات

ملخص البحث ٢٦٣

مقدمـــة ٢٦٥

أهمية الموضوع، وأسباب اختياره ٢٦٧

الدراسات السابقة ٢٦٨

خطة البحث ٢٧١

منهج البحث ٢٧٢

المبحث الأول: الوصاية بالقرآن بالكريم ٢٧٤

المطلب الأول: القرآن حبل الله ﷻ ٢٧٤

المطلب الثاني: القرآن لا يَخلَق ٢٧٦

المطلب الثالث: القرآن شفيع ٢٧٨

المطلب الرابع: فيه الغُنية والكفاية ٢٨٠

المطلب الخامس: التمسك به، وعدم هجره ٢٨٢

المطلب السادس: الإخلاص فيه ٢٨٣

المبحث الثاني: الأدب مع النفس ٢٨٧

المطلب الأول: الالتجاء إلىٰ الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وسؤال الله الحماية من الرياء والسمعة ٢٨٧
المطلب الثاني: الجد والحرص، واستفراغ الوسع في طلب العلم ٢٩٠
المطلب الثالث: التواضع، وعدم تزكية النفس ٢٩٢
المطلب الرابع: الصدق ٢٩٦
المطلب الخامس: سلامة الصدر ٢٩٨
المطلب السادس: الصبر ٣٠٠
المطلب السابع: الحرص علىٰ الأوقات ٣٠١
المبحث الثالث: الأدب مع الغير ٣٠٦
المطلب الأول: ثناؤه علىٰ المتقدمين ٣٠٦
المطلب الثاني: الصحبة ٣١٠
المطلب الثالث: الحرص علىٰ نفع الناس ٣١٢
المطلب الرابع: الوئام والمحبة ٣١٣
المطلب الخامس: في النصح للمسلمين ٣١٥
المبحث الرابع: المحاذير ٣٢٠
المطلب الأول: الغِيبة ٣٢٠
المطلب الثاني: الذنوب والمعاصي ٣٢٢

الخاتمة ٣٢٦
فهرس المصادر والمراجع ٣٢٧
فهرس الموضوعات ٣٣٩

TADABBUR MAGAZINE

Refereed Scientific Biannual Journal specialized in the Arbitration and Publication of the Researches and Studies related to the Areas of Meditating on the Holy Qur'an

Issue No. (10) Year 5 / Rajab 1442 AH, corresponding to February 2021

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]

TADABBUR MAGAZINE Index:

- **Contemplating the Noble Quran and its Impacts**
  Mohammed El amine Amir
- **Manifestations of the Blessing of Prepared Paths in the Light of the Surah Al Nahl**
  Mahmoud bin Abdel-Jaleel Rozan
- **The Rhetorical Aspects in the Surah Al Fatiha (An Analytical Study)**
  Dr. Mohammad Waseem Khan
- **The Quranic Verses Referring to the Affliction with Distress and Ailment in the Surah Al An'âm: (42-45) Commentary and Spiritual Conclusions**
  Dr. Musad bin Massad Al-Hussein
- **References to the Proprieties and Guidelines Contained in Muqaddimah Ash-Shaatibiyyah**
  Dr. Taariq bin Sa'eed Abu Rub'ah As-Sihli AL-Harbi
- **A report on a scientific thesis entitled "Contemplating the Noble Qur'an from the viewpoint of Imam Ibn Al-Qayyim, may Allah have mercy on him: A Fundamental Study",**
  Researcher Abdul-aziz bin Hussein Al-Wathlan
- **A report on Tadabbur Magazine for five years (from 1438 to 1442/2016-2021)**
- **A report on the First Tafseer (i.e. Quran Exegesis) Forum, held in the State of Kuwait entitled "Mathani", organized by the Ministry of Awqaf and Islamic Affairs**

1658-7642

25 SR